

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على الصادق الأمين محمد وآله الطاهرين.

عنوان الكتاب يتألف من مقطعين: السير والسلوك والميزان، أما المقطع الأول فهو اصطلاح اشتهر عند أهل التصوف والعرفان ليعبر عند جملة منهم عن منهج خاص ومسلك اختصاصي، في حين نراه ينبع من آيات القرآن الكريم ليشكل منهجاً عاماً في الحياة الإنسانية لا منهجاً خاصاً وتخصيصاً لبعض الناس.

والمقطع الثاني يشير إلى أمر وهو غاية في الأهمية، لاسيما حينما تختلط الأوراق، وتتعدد الآراء وتتنوع المشارب، إنه المنهج والميزان الذي على أساسه يتعرف الإنسان على الحق من الباطل وعلى الصحيح من الخطأ، وكم نحتاج في عصرنا هذا أن نتعرف على ميزان معرفة الحقيقة، فنوفر على أنفسنا الخوض في تجارب نحن في غنى عن الوقوع في سلبياتها ومضراتها.

فميزان السير والسلوك يمثل المنهج القويم في معرفة الطريق الذي يوصل الإنسان إلى غايته المنشودة وكماله اللائق على أمل أن يوفقني الله تعالى لانجاز الكتاب التالي حول برنامج السير والسلوك.

أسأل الله تعالى أن ينفع المؤمنين بهذا الكتاب الذي جاء صغيراً في حجمه بسيطاً في لغته ليحقق حصانة المجتمع في غاية الحياة، وليكون خير درعٍ من الموبقات كما أسأله تعالى أن ينفعني به يوم القيامة إنه سميع مجيب الدعاء.

أكرم بركات

بيروت - ربيع الأول 1425 - أيار 2004

الفصل الأول: لماذا خلقنا الله؟

* ما هو هدف حياتنا؟

* ما هي غاية وجودنا؟

* لماذا خلقنا الله؟

صيغ متعددة لسؤال واحد يرتبط بأصل وجود الإنسان ويحدد خطواته في هذه الحياة، لذا كان لهذا السؤال الأهمية الكبرى.

والجواب يجده الإنسان في موضعين:

الأول: داخل الوجدان.

الثاني: لوح القرآن.

جواب الوجدان

كل إنسان يجد في نفسه حباً للسعادة فهي الهدف لكل الناس بلا استثناء.

وللسعادة علامة وهي حصول الاطمئنان والسكينة والأمن داخل الإنسان، كما أن للشقاء علامة وهي حالة القلق والاضطراب، ولأجل الوصول إلى ذلك الاطمئنان وتلك السكينة يسعى الإنسان نحو الكمال الذي غرس الله حبه في نفسه منذ طفولته.

ففي تحليل حركة الإنسان منذ نعومة أظفاره نلاحظه يسعى نحو هدفٍ يعتقده كماله، فالصغير في بداية نشأته قد يعتقد أن كماله يتحقق حينما يبدأ الحركة بشكل مستقل وبما أن الخطوة المتوفرة له في تلك المرحلة هي الحبو على الأرض، فإننا نلاحظه يسعى جاهداً ليحبو؛ لعله يحقق من خلال الحبو كماله، لكنه حينما يحبو يتعرف على أن الحبو ليس كماله، فيسعى نحو المشي، لعله يحقق من خلاله كماله المنشود، فيمشي على قدمين بعد أن كان يتحرك على أربعة، لكنه يدرك بعد هذه المرحلة أنه لم يحقق ذلك الكمال.

حينها ينشد أمراً آخر لعله به يحقق كماله، وقد يظن أنه النطق والتكلم، فيسعى نحو تحقيق ذلك، فيتكلم وقد يصبح فصيحاً بليغاً، لكنه يشعر أن نار عشق الكمال مازالت تلتهب في داخله.

هنا قد يجعل له قدوة يظن أن كماله يتحقق حينما يصبح مثلها، وقد تكون القدوة أباه أو معلمه ([1]) أو قائداً محبوباً، وقد يصل إلى مستوى قدوته بل إلى أعلى منها منزلة، لكنه يشعر بذلك الظمأ نحو الكمال أنه ما زال في داخله وأن علامة السعادة وهي الاطمئنان والسكينة والأمن لم تتحقق في نفسه وروحه.

اشتباه الهدف:

ويستمر الإنسان كبيراً يبحث عن كماله الذي يحقق له تلك السعادة.

* فيتجه البعض نحو المال معتقداً أن الحصول عليه يحقق كماله، فيسعى جاهداً للحصول عليه، وقد يشقى، وتمتحن كرامته، لكنه يثابر لأجل الحصول عليه، وقد سمعت عن بعض التجار أنهم كانوا في أثناء المواسم التجارية يأخذون أدوية منشطة وطاردة للنوم لأجل الاستفادة القصوى من الموسم التجاري للحصول على أكبر نسبة من المال.

وقد يحصل الإنسان على المال الوفير، ويصبح غنياً مليوناً ذا ثروة كبيرة، لكنه لا يحصل على تلك السعادة التي كان يريجوها.

ألم تسمع بقصة الغني الذي احتجت عليه زوجته بجاره الفقير كيف يعيش مع زوجته السعادة التي لا يجدانها - وهما ثريان - في حياتهما، فكان جوابه عملياً بأن أعطى جزءاً من ثروته لذلك الجار الفقير الذي أفسدت تلك الثروة حياته وقلبت سعادته وعائلته إلى شقاء.

طبعاً ليس كل من يحصل على مال يكون هكذا، إلا أن الكثيرين من الأثرياء لا يجدون طعم السعادة المنشودة، ويبقون يشعرون بالفقر المعنوي وبالقلق المزعج الداعي لهم أن يفتشوا عن أمر آخر لعله يحقق كمالهم وسعادتهم.

تُرى أين هو سبب السعادة!!؟

هنا نلاحظ أن قسماً من هؤلاء الأثرياء يدفعهم عشقهم للكمال للتوجه نحو أمر آخر قد يجدونه في الجاه.

فنرى في المجتمع الكثير ممن قطعوا مرحلة الثراء - ومنهم من قطعها بعد شقاء - يصرفون أموالهم الكثيرة في حفلات وولائم ومشاريع بهدف الحصول على المكانة المعنوية بين الناس والتي يعبر عنها بالجاه، ويشعرون بالنشوة حينما تكلل بطاقت الدعوة لهم بألقاب الوجاهة، وحينما يجلسون في صدارة المجلس.. لكن هؤلاء حينما يصلون إلى مرحلة الوجاهة هذه يعرفون أنه لم يواكبها شعور بالاطمئنان، بل إن ذلك الجوع المعنوي والعطش الداخلي يحركهم نحو السعي لكمال آخر، لعله به يحققون سعادتهم، ترى أين هو محقق هذه السعادة!!؟

هنا قد يتوجه قسم من هؤلاء الوجهاء إلى السعي نحو السلطة كما قد نلاحظ في كثير ممن رشّحوا أنفسهم لرئاسة المجالس البلدية وكذا في المجالس النيابية؛ فإن كثيراً من هؤلاء قطعوا مرحلتَي الثروة والوجاهة، وها هم يحاولون ريّ عطشهم الداخلي من خلال السلطة.

ويصل الإنسان منهم إلى رئاسة المجلس البلدي أو النيابة، لكنه لا يكتفي بذلك فيسعى نحو منصب آخر كالوزارة، ويصبح وزيراً فيسعى نحو الرئاسة وكما يقول أحد الحكماء (لو ملك الأرض لتوجهت عيناه نحو السماء).

يقول الإمام الخميني (ره) واصفاً أنفُس هؤلاء:

«فهي عندما تبسط لواء قدرتها على قطر من الأقطار، تتوجه بنظرة طامعة إلى قطر آخر، بل إنها لو سيطرت على الكرة الأرضية برمتها، لرغبت في التحليق، نحو الكرات الأخرى للاستيلاء عليها».[21]

كل ذلك لأن أنفُس هؤلاء قد اشتبهت فيما يُحقق هدفها فكل هؤلاء يسعون نحو الكمال، إلا أنهم يخطئون في تحديده وفيما يتحقق به.

ومن لطيف ما ورد في هذا أن بعض العلماء يرمزون إلى الكمال الذي ينشده كل إنسان بـ (ليلى) فيقول: كل إنسان يسعى نحو ليلى، إلا أن البعض يظن أن ليلى هي المال فيسعى نحوه والبعض يظنها الجاه فيقبل عليه والبعض يظنها السلطة فيتوجه إليها والبعض يظنها ليلى!

لكن الجميع لا يجدون ليلى في كل ما سعوا نحوه وتوجهوا إليه وأقبلوا عليه ترى أي هي (ليلى) الحقيقية؟

إن جميع الناس تقول بلسان ينبع من الوجدان: «إننا عاشقون للكمال» أين نجده؟

هنا ينبري الشيخ العارف القارئ لتجارب من مضى الإمام روح الله الخميني (ره) ليجيب هؤلاء بلغته الداخلة إلى القلوب من غير استئذان:

«فيا أيها الهانمون في وادي الحيرة، والصانعون في صحارى الضلالات، بل أيتها الفراشات الهانمة حول شمعة جمال الجميل المطلق، ويا عشاق الحبيب الخالي من العيوب، والدائم الأزلي، عودوا قليلاً إلى كتاب الفطرة، وتصفحوا كتاب ذاتكم، لتروا أن الفطرة الإلهية قد كتبت فيها بقلم القدرة (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)» ([3]).

أجل، إن الإنسان حينما يرجع إلى فطرته يتعرف إلى أن سعيه كان نحو الكمال المطلق الخالي من كل عيب ونقيصة، وأن كل ما ظنه كمالاً كان خداعاً.

فالكمال المطلق متحقق في واحد أحد ألا وهو الله رب العالمين، وأن كمال الإنسان وسعادته لا تتحقق إلا حينما يرتبط بالكمال المطلق.

أدريت - أيها القارئ العزيز - معنى قوله تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) ([4]).

بذكر الله والارتباط به يصل الإنسان إلى الاطمئنان والأمن والسكينة، فيكون (مؤمناً) حقاً يعيش الأمن في حياته وتكون نفسه (النفس المطمئنة) ويعيش في حياته لذة (السكينة).

إنه مشروع سعادة الإنسان الذي رسمه القرآن الكريم.

وحينما يسير الإنسان في هذا المشروع بخطى ثابتة فإنه يصبح ثابتاً لا تضر به عواصف البلاء والمحن ولا تغيره أمواج الثراء والنعم.

فقد يكون فقيراً وسعيداً، غنياً وسعيداً، مغموراً وسعيداً، وجيهاً وسعيداً، مرؤوساً وسعيداً، رئيساً وسعيداً.

وها هو نبي الله سليمان يهب الله تعالى له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فكان سلطانه يمتد ما بين الشامات إلى بلاد اصطخر ([5])، وقد غلُمَ منطق الطير، وسخر له الجن والإنس كما كانت الريح تجري بأمره، وكان لا يسمع بملك في ناحية الأرض إلا أتاه حتى يذله ويدخله في دين الله تعالى.

ومع ذلك كله كان المطمئن في ملكه غير متعلق به، فكان يقعد مع المساكين، ويقول مسكين مع المساكين، وكان إذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه، فلا يزال قائماً حتى يصبح باكياً، وكان يقول:

«لتسبيحة في صحيفة المؤمن خير مما أعطي ابن داود ما أعطي، ابن داود يذهب، وإن التسبيحة تبقى»([6]).

* وها هو نبي الله أيوب يعيش ذلك الاطمئنان حين كان أباً لأولاد يعيش معهم الهناء، ومالكاً لأموال يحلم بها الآخرون، وفي ظل عافية جسد يملؤه النشاط، ولم يبدل اطمئنانه ذلك البلاء الذي حلّ بأولاده وماله وصحة جسده بل قال حين فقد ماله:

«الحمد لله حين أعطاني، وحين نزع مني، عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود إلى التراب، وعرياناً أحشر إلى ربي»([7]).

وبمثل هذا كان جواب أيوب حينما ابتلي بفقدان أولاده:

«إنهم عباده وهو أرفأ بهم من أبيهم وأهم»([8]).

وظل أيوب مطمئناً حينما لحق البلاء جسده فلم تهزه كل هذه البلاءات وبقي مطمئناً.

* وها هو خاتم الأنبياء (ص) عاش سعادته جائعاً في شعب أبي طالب، ومطارداً في مكة والطائف، ومنتصراً في بدر وخيبر، وفاتحاً لمكة المكرمة، كما عاش ذلك الاطمئنان مربيّاً للسيدة الزهراء ÷ أم أبيها (ص) وحاملاً لسبطيه الحسن والحسين عليهما السلام، وفاقداً لولديه القاسم وإبراهيم.

* وها هو الإمام الحسين (ع) يسير باطمئنان ويشعر بالسعادة الكاملة إلى حيث شاء الله أن يراه قتيلاً، وأن يرى النساء سبايا، كما عاش ذلك الاطمئنان وتلك السكينة حينما دنا من الشهادة فسكنت نفسه وهدأت جوارحه وأشرق لونه نوراً وبهاءً([9]).

* وها هو الإمام الخميني (ره) يعيش مطمئناً في أسرته، وفي مجلس درسه، بل وهو مقيد من أعوان الشاه (السافاك) الذين جاؤوا ليعتقلوه والمظنة القتل، لكنه عبّر عن موقفه في ذلك الوقت قائلاً:

«أنا لم أخف طول حياتي، حتى حينما جاء السافاك ليعتقلوني لم أخف، بل هم ارتعدوا فصرت أهدئ من روعهم».

وبقي بذلك الاطمئنان حينما حلّ في أرض طهران يستقبله ملايين المحبين الموالين ينادون (فليحي الخميني) وحينما سئل عن شعوره وقتها قال:

«سواء قالوا فليحي الخميني أو فليمت الخميني، فالأمر عندي سواء».

وهو الذي ودّع الأمة في كلمته الأخيرة قائلاً:

«بقلب هادئ وبنفس مطمئنة وروح فرحة وضمير يأمل فضل الله استأذن الأخوات والإخوة وأسافر نحو المقر الأبدي وأنا بحاجة مبرمة إلى صالح دعائكم».

نعم: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

وبالارتباط بالكمال المطلق والسير على طريقه يصل الإنسان إلى كماله اللائق بشأنه.

لكن كيف نحقق معنى ذكر الله في أنفسنا لتطمئن قلوبنا؟

وكيف نرتبط بالكمال المطلق لنحقق كمالنا، ونصل إلى السعادة المنشودة؟ هَلَمْ معي إلى مدخل الجواب الشافي مع جواب القرآن الكريم على السؤال الأساس: لماذا خلقنا الله؟

جواب القرآن

يجيب القرآن الكريم محدداً هدف خلق الإنسان بقوله:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ([10]).

هدف الخلق = عبادة الله

والعبادة في أصل معناها تطلق على الفعل الذي يكون طيعاً ليناً ومذلاً بحيث لا يكون فيه عصيان ولا مقاومة ولا اعتداء.

ومن هنا سميت الطريق التي كثر المرور عليها بحيث لم تعد أحجارها وأشواكها تؤذي بل صارت لينة غير شوكسة، وغير عاصية (الطريق المعبد) أي المسلك المذل ([11]).

فعبادة الله تعالى تعني طاعته بليين وتذلل، وذلك مقابل عبادة غير الله والتي عرض القرآن الكريم منها نماذج تظهر مما يلي:

1- عبادة الهوى: قال الله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) ([12]).

فعابد الهوى هو الطيع له اللين معه، لذلك يكون عصياً عاصياً لله تعالى، فاللين للهوى يلزمه العصيان لله.

2- عبادة الإنسان: وقد عرض القرآن الكريم أمثلة لهذه العبادة منها:

أ- عبادة السلطان: قال الله تعالى عن لسان كليم الله موسى (ع) لفرعون:

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عِبَدْتَ بُنِي إِسْرَائِيلَ). ([13])

فنبى الله موسى (ع) يصف عمل فرعون أنه تعبد لبني إسرائيل بمعنى إذلالهم بحيث أصبحوا يطيعونه بتذلل ولين دون مقاومة بعد أن أجبرهم على ذلك وسلبهم حقوقهم.

ب - عبادة الأحرار والرهبان: قال تعالى:

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) ([14]).

فقد كان من أهل الكتاب من أطاعوا رهبانهم وأحبارهم بتذلل ولين من دون الله تعالى.

لذا دعا الله تعالى أن تكون الكلمة السواء بين المسلمين وأهل الكتاب هي عبادة الله دون عبادة الإنسان، فقال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ) ([15]).

وها هي رسالة خاتم الأنبياء (ص) التي أرسلها إلى ملوك العالم وسلاطينه عام 5 أو 6 للهجرة ([16]) تدعوا إلى تحقيق هدف الإنسان وهو: عبادة الله.

هدف العبادة

ومن اللافت أن القرآن الكريم لم يعرض عبادة الله تعالى كهدف أخير وأقصى لخلق الإنسان، بل عرض العبادة كوسيلة لتحقيق هدف أرقى وأسمى وهو ما ورد في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ([17]).

فللعبادة هدف ألا وهو التقوى.

هدف الخلق = العبادة

هدف العبادة = التقوى

مكانة التقوى وآثارها:

وقد بين الله تعالى مكانة التقوى وآثارها في آيات عديدة:

1- فهي وصية الله تعالى:

قال عز وجل:

(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ...) ([18]).

2- وهي ميزان الكرامة عند الله:

قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ([19]).

3- وهي شرط قبول العمل:

قال سبحانه:

(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ([20]).

4- وهي أفضل اللباس:

قال عز وجل:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) ([21]).

5- وهي مفتاح الهداية:

قال تعالى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) ([22]).

6- وبها يفتح الله بركات السماء والأرض:

قال سبحانه:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ([23]).

7- وبها يرزق الله ويجعل مخرجاً:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ([24]).

8- وبها يكفر الله السيئات ويجزل الثواب:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) ([25]).

9- وبها يدخل الإنسان جنة الله:

قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ) ([26]).

معنى التقوى

إن مفهوم التقوى ينسجم مع مفهوم اللفظ المشترك مع التقوى في أصل المادة ألا وهو الوقاية التي تعني الحماية فالتقوى تحمل معنى المنعة و الحصانة والحماية، ولعله لهذا عقب الله تعالى كلامه عن لباس بني آدم بأن لباس التقوى ذلك خير، لأن من وظيفة اللباس حماية الإنسان، وإيجاد المنعة والحصانة لجسده من المرض ومن التعرّض للمشاكل الصحية، فدعا الله تعالى إلى التدرع بلباس للنفس والروح وهو لباس التقوى الذي يحمي نفس الإنسان ويقيه ويجعل فيه المناعة كما يحمي اللباس الجسد.

من هنا نسب القرآن الكريم التقوى إلى القلوب التي تأتي بمعنى النفوس فقال تعالى:

(ذَٰلِكَ وَمَن يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) ([27]).

يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان تعقيباً على هذه الآية:

«وإضافة التقوى إلى القلوب للإشارة إلى أن حقيقة التقوى، وهي التحرُّز والتجنب عن سخطه تعالى، والتورّع عن محارمه أمر معنوي يرجع إلى القلوب وهي النفوس وليست هي جسد الأعمال»([28]).

يرجع إلى المنعة والحصانة والحماية هذا فسَّر أهل البيت (ع) التقوى بمعنى الترك والرفض والاجتناب.

فعن أمير المؤمنين (ع):

«التقوى اجتناب».

وعنه (ع):

«المتقي من اتقى من الذنوب».

وعنه (ع):

«ملاك التقوى رفض الدنيا»([29]).

وبهذا المعنى يلتقي مفهوم التقوى مع مفهوم لورع الذي هو عبارة عن الكف عن المحارم([30]) كما هي إحدى درجاته.

ولهذا فسَّر الورع بتفسير مشابه للتقوى، فعن أمير المؤمنين (ع):

«الورع اجتناب»([31])

وعنه (ع):

«الورع أفضل لباس، الورع جُنَّة، عليك بالورع فإنه خير صيانة»([32]).

وكما أن التقوى هي الأساس في قبول العمل كذلك ورد في الورع، فعن الرسول الأكرم (ص):

«لو صليتم حتى تكونوا كالأوتار، وصمتتم حتى تكونوا كالحنايا لم يقبل الله منكم إلا بورع»([33]).

هدف التقوى

وعلى كلِّ فإن الهدف من العبادة أن يصل العابد إلى حالة التقوى والمناعة والحصانة وحينما يصل إليها فإنه يصل إلى الهدف الأسمى الذي رسمه القرآن الكريم في آياته، فكما أن لخلق الإنسان هدفاً وهو العبادة، وأن للعبادة هدفاً وهو التقوى، كذلك للتقوى هدف وهو الفلاح.

وهذا ما نصَّ عليه القرآن الكريم حينما بيَّن هدف التقوى بقوله:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)([34]).

هدف الخلق = العبادة

هدف العبادة = التقوى

هدف التقوى = الفلاح

والفلاح هو الفوز والظفر، ففلاح المتقين هو فوزهم بمطلوبهم من الخلاص من عذاب الله والبقاء على دوام رحمته، وهو نوعان: دنيوي وهو الظفر بما تطيب به الحياة الدنيا، وأخروي وهو الفوز في دار الآخرة، وقيل: أنه أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل([35]).

كيف نصل إلى الفلاح

وإذا كان الفلاح هدفاً أسمى للتقوى التي هي هدف العبادة التي هي هدف الخلق نعرف القيمة الكبرى لآية من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الواصلين إلى مرحلة الفلاح ألا وهو قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)([36]).

فتزكية النفس هي ما يحقق أسمى هدف رسمه القرآن الكريم لخلق الإنسان وهو الفلاح.

ومن الكلام المتقدم يمكن الإجابة على السؤال المتقدم: لماذا خلقنا الله؟ فالجواب هو: (لتزكية أنفسنا).

وعند ملاحظة جواب الوجدان لسؤال لماذا خلقنا الله؟ ألا وهو الكمال، وجواب القرآن له ألا وهو تزكية النفس نلاحظ أنهما ينسجمان إلى حد كبير.

فالتزكية من زكى التي تأتي بمعنى طهر، وأيضاً بمعنى زاد ونمى([37])، كما ورد عن لسان أمير المؤمنين (ع).

«العلم يزكو على الإنفاق»([38]).

أي ينمو ويتكامل.

فتزكية النفس هو نموها وكمالها. فتزكية النفس يحصل الكمال الإنساني.

وهذه النتيجة تتلاءم مع ما يقوله أهل التصوف والعرفان من أن الكمال الإنساني يتحقق بالسير والسلوك.

ولبيان هذا التلازم والانسجام بين مصطلحي التزكية والسير والسلوك نوضح المقصود من المصطلح الأخير.

السير والسلوك

جرت العادة أن يتناول اصطلاح السير والسلوك من قبل المتصوفة وأهل العرفان حتى بات الكثير يعتقد أنه اصطلاح خاص بهم لا يتعداهم، والمتتبع لكلماتهم يلاحظ معنى خاصاً قصده إلا أن منشأ هذا الاصطلاح ليس خاصاً، بل إن انبثاقه من القرآن الكريم انبثاق طبيعي وواضح.

فقد دأب القرآن الكريم على ذكر طريق الله تعالى طالباً من الإنسان تارة أن يهديه إليها، وأخرى أن يسير فيها ويسلكها.

وقد وردت تسمية هذا الطريق بعنوانين: السبيل والصراط، وهذا ما توضحه الآيات التالية:
سبيل الله:

- 1- (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ([39]).
- 2- (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ) ([40]).
- 3- (وَلَنِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ([41]).
- 4- (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً) ([42]).
- 5- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ([43]).
- 6- (وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا) ([44]).
- 7- (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا) ([45]).

الصراط:

- 1- (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ([46]).
- 2- (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) ([47]).
- 3- (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ([48]).
- 4- (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا) ([49]).
- 5- (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ([50]).
- 6- (وَأَنْ اْعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) ([51]).
- 7- (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) ([52]).
- 8- (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ([53]).
- 9- (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ([54]).

الفرق بين الصراط والسبيل

والمتتبع لكلمتي السبيل والصراط في القرآن الكريم يُلاحظ فارقين بينهما.

الأول: إن كلمة السبيل استعملت لسبيل الله وسبيل غير الله بخلاف كلمة الصراط التي لم تستعمل إلا في صراط الله تعالى.

ومن أمثلة استعمال كلمة السبيل لغير سبيل الله الآيات التالية:

1- (وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ) ([55]).

2- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) ([56]).

3- (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) ([57]).

4- (فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ([58]).

فالملاحظ في هذه الآيات أن كلمة السبيل استعملت في سبيل المجرمين الكافرين والطاغوت والجاهلين، على خلاف كلمة الصراط التي لم ترد منسوبة إلى غير الله تعالى.

الثاني: إن كلمة السبيل وردت في القرآن الكريم بصيغة الجمع (سبل) بينما لم ترد كلمة الصراط إلا مفردة.

1- (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) ([59]).

2- (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) ([60]).

3- (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) ([61]).

ويفهم الشهيد الشيخ مرتضى المطهري من جمع كلمة (السبيل) في بعض الآيات وبقاء كلمة الصراط مفردة أن هذا يعود إلى أن معنى سبيل الله هو الطريق الفرعي المؤدي إلى الهدف الإلهي، فهناك طرق فرعية كثيرة تؤدي إلى ذلك الهدف، أما الصراط فهو الطريق المركزي الرئيسي. والذي تصب فيه تلك السبل، لذا أفرج الصراط وجمع السبل ([62]).

وعلى كل حال فإن ما تقدم يبيّن منشأ اصطلاح السير والسلوك، فالزخم السابق لآيات السبيل والصراط ينبثق منه بشكل واضح أن المطلوب الإلهي من الإنسان هو أن يسير على صراطه وفي سبيله، وأن يسلك هذا الصراط والسبيل، وأن يتجنب سلوك السبل الأخرى التي هي لغير الله تعالى.

ومن لطيف ما ورد في هذا أن الرسول الأكرم (ص) كان جالساً وحوله جمع من الناس، فراح (ص) يرسم خطوطاً على الأرض، وكان واحداً منها مستقيماً، والخطوط الأخرى غير مستقيمة، وحينما تساءل الناس عن الهدف من رسم النبي هذا قال (ص):

«هذا خطي دون باقي الخطوط»

ونتيجة لما تقدم يمكن الإجابة عن السؤال السابق: لماذا خلقنا الله؟ بثلاثة أجوبة تصب في خانة واحدة وهي:

خلقنا الله تعالى لأجل الوصول إلى الكمال الإنساني.

خلقنا الله تعالى لأجل تزكية أنفسنا.

خلقنا الله تعالى لأجل السير والسلوك في سبيله وعلى صراطه.

يبقى السؤال الثاني والملح:

كيف نصل إلى هذا الكمال؟ كيف نزكي أنفسنا؟ كيف نسير في سبيل الله وعلى صراطه؟ لتحقيق بهذا هدف وجودنا وغاية خلقنا.

هذا ما يجيب عنه ما يأتي من هذا الكتاب فهلم بنا إليه.

([1]) في إحصائية لإحدى الدول أن 35% من الأطفال يرغبون أن يكونوا مثل معلمهم، وأن يقتدوا بهم، (انظر: بركات، أكرم، كيف تجعل ولدك صالحاً. ط1، بيروت، دار الولاة، 2000م، ص 76).

([2]) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، تعريب السيد محمد الغروي، ط10، قم، دار الكتاب الإسلامي (لا.ت)، ص 126.

([3]) الإمام الخميني، منهجية الثورة، ص 6.

([4]) الرعد: 28.

([5]) الراوندي، قطب الدين، قصص الأنبياء، تحقيق اليزدي، ط1، مشهد، مجمع البحوث الإسلامية 1409هـ، ص 208.

([6]) الجزائري، نعمة الله، قصص الأنبياء، ط8، بيروت، الأعلمي، 1978م، ص 411 - 412.

([7]) الحسني، عبد الصاحب، الأنبياء، ط1، بيروت، الأعلمي، ص 245.

([8]) بركات، أكرم، محاضرات عاشورائية، ط1، بيروت، دار الولاة، 2000م، ص 136.

([9]) انظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط3، بيروت، الوفاء، 1983م، ج6، ص 154.

([10]) سورة الذاريات، الآية/56.

([11]) انظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404هـ، ج4، ص 205، 206.

([12]) سورة الفرقان، الآية/43.

- [13] سورة الشعراء، الآية/ 22.
- [14] سورة التوبة، الآية/ 31.
- [15] سورة آل عمران، الآية/ 64.
- [16] المطهري، مرتضى، معرفة القرآن، ترجمة الخليلي، بيروت، دار التعارف، ص143.
- [17] سورة البقرة، الآية/ 21.
- [18] سورة النساء، الآية/ 131.
- [19] سورة الحجرات، الآية/ 13.
- [20] سورة المائدة، الآية/ 27.
- [21] سورة الأعراف، الآية/ 26.
- [22] سورة الأنفال، الآية/ 29.
- [23] سورة الأعراف، الآية/ 95.
- [24] سورة الطلاق، الآيتان/ 2-3.
- [25] سورة الطلاق، الآية/ 5.
- [26] سورة القمر، الآيتان/ 54-55.
- [27] سورة الحج، الآية/ 32.
- [28] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط2، بيروت/ الأعلمي، 1972م/ ج17، ص374.
- [29] الري شهري، محمدي، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلامية، 1985م، ج.پ، ص656.
- [30] الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق الحسيني، ط2، بيروت، مؤسسة الوفاء 1983م، ج4، ص401.
- [31] الري شهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج1، ص28ط.
- [32] المرجع السابق، 424، 425.
- [33] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1982م، ج84، ص258.

[34] سورة المائدة، الآية/100.

[35] الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق الحسيني، ط2، بيروت، مؤسسة الوفاء1983م، ج2، ص400.

[36] سورة الأعلى، الآية/14.

[37] انظر الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ج1، ص203-205.

[38] الشهيد الثاني، زين الدين بن مكي، منية المريد، تحقيق الحسيني، بيروت، دار المرتضى، 1997م، ص28.

[39] سورة البقرة، الآية/244.

[40] سورة البقرة، الآية/261.

[41] سورة البقرة، الآية/157.

[42] سورة النساء، الآية/100.

[43] سورة الأنفال، الآية/72.

[44] سورة آل عمران، الآية/195.

[45] سورة آل عمران، الآية/169.

[46] سورة الفاتحة، الآية/6.

[47] سورة آل عمران، الآية/51.

[48] سورة آل عمران، الآية/101.

[49] سورة الأنعام، الآية/126.

[50] سورة البقرة، الآية/142.

[51] سورة يس، الآية/61.

[52] سورة الأنعام، الآية/153.

[53] سورة الشورى، الآية/52.

[54] سورة الشورى، الآية/53.

[55] سورة الأنعام، الآية/55.

[56] سورة العنكبوت، الآية/12.

[57] سورة النساء، الآية/76.

[58] سورة يونس، الآية/89.

[59] سورة إبراهيم، الآية/12.

[60] سورة العنكبوت، الآية/69.

[61] سورة المائدة، الآيتان/15-16.

[62] المطري، مرتضى، معرفة القرآن، ترجمة الخليلي، بيروت، دار التعارف، ص155.

الفصل الثاني: ميزان السير والسلوك

اتجاهات في السير والسلوك

اتفق المسلمون على أهمية ومكانة تزكية النفس وأنها تحقق السير الصحيح في سبيل الله وسلوك صراطه سبحانه وتعالى، إلا أنهم اختلفوا في كيفية هذه التزكية التي توصل إلى الغاية المنشودة، والاختلاف بينهم لم يقتصر على الناحية النظرية بل تعدوها إلى الجانب العملي مما أظهر اتجاهات عملية متعددة في كيفية تزكية النفس والسير إلى الله تعالى ونعرض هنا بعض هذه الاتجاهات.

1- طريق التزكية = إرهاب الجسد

فقد اعتقد بعض الناس أن السير والسلوك يتحقق عبر إرهاب الجسد بل تعذيبه بالمجاهدات والرياضات وذلك لأضعاف سطوته والحد من سلطانه. وهذا الاتجاه في ما يبدو كان موجوداً في الأمم السابقة على الإسلام، وإن كان قد أخذ شكلاً خاصاً في كل أمة ([1]).

وقد ظهر هذا الاتجاه في المجتمع الإسلامي في أشكال متعددة، وقد ظهر اسم (الصوفية) لإحدى الفرق التي كان يلبس أتباعها الصوف والملبس الخشن حتى في حر الصيف، مجتنبين لبس الناعم من الثياب زهداً وإعراضاً عن الدنيا ([2]).

وتنقل في هذا الاتجاه قصص غريبة عجيبة، فقد نقل عن أحد الشيوخ الذين كانوا يريدون تطويع أنفسهم على القيام في الليل دون كسل أنه ألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ([3]).

2- طريق التزكية = السقوط من أعين الناس

فقد اتجهت بعض الفرق المنسوبة إلى الصوفية إلى أن طريق التزكية هي السقوط من أعين الناس، والهدف هو السلامة من آفات الجاه والرياء، فاتجه هؤلاء إلى تحقير أنفسهم وشرفهم أمام المجتمع ولو بارتكاب كبائر الذنوب لأجل أن يحققوا هدفهم([4]).

ومن عجيب ما نقل من قصص هؤلاء مما حكاه أبو حامد الغزالي عن ابن الكريني أنه قال: «نزلت في محلة فعرفت فيه بالصلاح، فدخلت في الحمام، وغيببت عليّ ثياباً فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقعتي فوقها، فخرجت أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني فنزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب، وصفعوني، فصرت بعد ذلك أعرف بلصّ الحمام، فسكنت نفسي»!!!

قال أبو حامد: فهكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتى يخلهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس وأرباب الأحوال.

ومن قصص هؤلاء أن بعضهم كان يستأجر من يشتبه على ملاء من الناس، ليعود نفسه الحلم([5]).

3- طريق التزكية = العزلة

فقد اعتقد بعض الناس أن تزكية النفس بحاجة إلى الاختلاء والعزلة والابتعاد عن وضع المجتمع، فبالعزلة يبتعد الإنسان عن الدنيا ونعيمها وزخرفها لينصرف إلى عبادة الله، وقد بنى أصحاب هذا الاتجاه الصوامع في أمكنة بعيدة عن الناس ليتعبدوا فيها([6]).

4- طريق التزكية = أذكار لسانية

فقد اعتبر بعضهم أن تزكية النفس تتحقق من خلال أورداد وأذكار لسانية يكرّرها السالك، ولا يسمح بالشروع فيها من دون إذن أستاذ خاص لأن ذلك كحكم الأدوية، أحدها مضر، وآخر نافع([7]).

سؤال ملح

إن ما تقدم وهو بعض الاتجاهات الكثيرة في السير والسلوك يشكل منشأ لسؤال ينطلق من الناظر إليها وهو يريد بصدق أن يزكي نفسه ويسير في طريق كماله.

فأي طريق يسلك؟

أيعتمد على إرهاب جسد؟ أم يعمل ما يسقط به من أعين الناس؟

أم يعتزل المجتمع؟ أم يتجه نحو الأذكار؟ أم يتخذ طريقاً آخر من طرق تعددت وتنوعت وتباينت فيما بينها؟

هل هذه الطرق كلها صحيحة؟ أم كلها باطلة؟ أو بعضها صحيح والآخر باطل؟

ترى من يجيب على هذا السؤال؟!

أيعقل أن الله تعالى الحكيم لم ينصب لنا ميزاناً ومعياراً ومرجعاً لنحدد فيها الطريق الصحيح الذي به يتحقق هدف وجودنا من الطرق الباطلة؟ كلا، وحاشا لله أن يترك الناس بدون ذلك الميزان.

وكيف يتركهم بدونه ونحن - العقلاء- نجزم ونقطع بعيب الدعوة التي يدعوك فيها إنسان إلى منزله، لكنه لا يرشدك إلى عنوانه لا بكلام، ولا بخريطة، ولا بمرشد ونحو ذلك؟

إذن ما هو هذا الميزان الذي من خلاله نعرف الطريق الصحيح من الطريق الباطل لتزكية أنفسنا ولسيرنا في سبيل الله ولتحقيق كمالنا الإنساني؟

الميزان = القرآن

الجواب في عنوانه الأول واضح. إن الميزان والمعيار والمرجع في ذلك هو كتاب الله تعالى القرآن الكريم، ألم يسمّه الله تعالى فرقانا لأنه يفرق بين الحق والباطل فقال تعالى:

(نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) ([8]).

أجل إن القرآن هو الميزان والمعيار، لكن قد يعلّق البعض على هذا الجواب بأن القرآن الكريم هو دستور للحياة، ولكنه لم يحتو كل تفاصيلها بحيث يفهم ذلك كل إنسان يطلع عليه، ولو سلّمنا بأن فيه أو منه تستخرج كل التفاصيل المطلوبة لحياة الإنسان، فإن أكثر الناس لا يستطيعون استخراج تلك التفاصيل منه، وما يدعم وجهة النظر هذه أن ما ذكر من اتجاهات سابقاً وغيرها أيضاً كلها تنسب إلى هذا القرآن الكريم، وأصحابها يدعون انسجام اتجاهاتهم مع هذا الكتاب العزيز، من هنا كان ولا بد من تحديد أكثر وأوضح للميزان المطلوب والذي من خلاله يحدّد الفهم الواضح لآيات القرآن الكريم، فما هو الذي يكمل الجواب السابق ليكون بضميمة القرآن ميزاناً أو معياراً أو مرجعاً نحدد على أساسه طريق التزكية الصحيحة من الطرق الباطلة؟

الميزان = القرآن (ره) الرسول (ص)

والجواب على هذا السؤال يأتي أيضاً من القرآن الكريم الذي أرجع بشكل واضح تفاصيل الرسالة الإلهية، إلى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله (ص) فقال تعالى:

(مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ([9]).

إذن السؤال عن ميزان السير والسلوك يتوجّه إلى خاتم الأنبياء (ص) فما هو هذا الميزان يا رسول الله؟

بين يدي الرسول (ص) لمعرفة الميزان:

لقد أجاب نبينا الأكرم (ص) وبيّن الميزان بكلام واضح، وأمام ملاء عظيم يتعدّى مئة ألف مسلم ليكون هذا الميزان متواتراً على مدى الأيام والعصور، فهو مقياس الحق والباطل للشرعية التامة الخالدة التي طالما حلم وسعى نحوها الأنبياء والأولياء عبر التاريخ.

لقد بين ذلك الميزان وهو ينظر بعلمه اللدني إلى الماضي والحاضر والمستقبل من سنته المباركة التي أكملت مع القرآن الكريم كل الرسالة بتفاصيلها الدقيقة التي لم تترك فراغاً سلبياً حتى في حكم بقية الطعام بين الأسنان فورد حكمه فيها، إن هذه السنّة واجهت موانع عديدة في انتشارها الكامل بين كل الناس بما يحفظها عبر الأجيال، فمرحلة تبليغ هذه السنّة المتضمنة لأحاديث الرسول الأكرم (ص) وأعماله الشريفة، وتقريره وإمضائه لأعمال غيره، لم تسنح لها سنون مكة الثلاث عشرة أن تنتشر بين الناس، وكيف تلقى الانتشار المطلوب، ولم يؤمن بالنبي (ص) في مكة إلا عدد قليل لم يتجاوزوا أربعمائة مسلم على الأكثر ([10])، وكان أغلبهم من

المستضعفين المضطهدين مما أدى إلى هجرة الكثير منهم (70 عائلة) إلى الحبشة مرتين، وبالتالي انفصالهم عن تلقي الدعوة الإسلامية المباشرة من النبي محمد (ص).

وفي هذه السنوات المكيّة كان المشركون يضيقون على النبي (ص) والمسلمين الباقين معه ضيقاً شديداً، ويمنعونه من تبليغ دعوته للآخرين حتى وصل الأمر بهم إلى محاصرته مع جملة من الهاشميين في شعب أبي طالب ثلاث سنوات حيث كانت المجاعة الشديدة...

إن الناظر في هذه المرحلة المكية يُدرك بوضوح أن الفرصة لم تسنح للنبي (ص) إلا بتبليغ أساسيات الاعتقادات والبعض من جوانب الشريعة كما يلاحظ القارئ للآيات القرآنية النازلة في مكة.

ومما يؤكد هذا الواقع أن فريضة الصوم، وهي من أوائل فروع الدين، لم تنزل في مكة بل في المدينة.

في المدينة

وانتهت هذه السنوات المكيّة بهجرة النبي (ص) إلى يثرب ليقضي فيها عشرة سنوات كانت مليئة بالحروب والغزوات وما شابه، إضافة إلى الخلافات التي حصلت بين القبائل من داخل المجتمع الإسلامي الجديد، وقد سجّل التاريخ في الفترة المدنيّة النبوية وقوع أكثر من ثمانين معركة وغزوة وإرسال سرايا وما شابه، وكان النبي (ص) هو القائد العسكري لها.

ومن الواضح أن هذه الحروب والغزوات شكّلت معوقات أمام تبليغ تفاصيل الشريعة الإسلامية والسنة النبويّة الشريفة.

يقول الشهيد المطهري:

«وإذا أردنا أن نغض النظر عن الواقع الكائن في مكة والمدينة، ونفترض أن رسول الله (ص) سلك في هذه السنوات الثلاث والعشرين من البعثة نهج المعلم الذي لا شأن له إلا الذهاب إلى الصف وتعليم الناس، فمع ذلك لم يكن هذا الوقت وافياً كي يُبين النبي (ص) للناس جميع ما ينطوي عليه الإسلام، فكيف إذا أضفنا لذلك التاريخ القائم (الذي امتصّ جلّ أوقات النبي(ص)) خصوصاً بشأن دين كالإسلام يبسط حاكميته على جميع شؤون حياة البشر»([11]).

الحل: ولاية الحجج (ع)

إذن لابدّ من حلّ يتسنى من خلاله للنبي (ص) أن يبلغ ويحفظ سنته الشريفة التي تمثل مع القرآن الكريم توأم التشريع الكامل.

فكان الحلّ الإلهي يتمثل بتربية إلهية لشخص استثنائي يكون وعاءً لعلم النبي (ص) ومستودعاً لسنته وحافظاً للدين الحنيف. وكان هذا الشخص هو علي بن أبي طالب (ع)، فكان محلّ الفيض الإلهي. والتعليم النبوي.

وهذا ما يعطينا التفسير الواضح لتلك الجلسات الطويلة بين محمد (ص) وعلي (ع) وتلك الملازمة الشديدة بينهما والتي كان يعبر عنها أمير المؤمنين بقوله:

«ولقد كنت اتبعه إتباع الفصيل أثر أمه»

وكان (ع) يقول:

«إذا سألت رسول الله (ص) أجبني وإن فنيت مسائلني ابتدأني»([12]).

وأكدت الروايات أن هذا التعليم الخاص كان بأمر إلهي. فقد روى أبو نعيم الحافظ الشافعي (ت 439هـ) بإسناده عن رسول الله (ص):

«يا علي إن الله (عزَّ وجلَّ) أمرني أن أدنِّيك وأعلمك لتعي وأنزلت هذه الآية (وَتَعِيهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ) وأنت أذن واعية للعلم»([13]).

ولأجل هذا الدور الإلهي في إكمال تبليغ الشريعة الإلهية والسنة النبوية حدَّد النبي (ص) أن للشريعة مدخلًا وان لعلمه باباً من أراد أن يغترف لابد أن يدخل منه فقال (ص):

«أنا مدينة العلم وعلي بابها»([14]).

بعد الإمام علي (ع):

ولم تكن فترة حياة أمير المؤمنين (ع) - لاسيما بالظروف التي أحاطت بها - كافية لأداء هذا الدور الكبير في إكمال تبليغ السنة النبوية، فخرَّج أمير المؤمنين (ع) تفاصيل الشريعة الطاهرة في الحسن والحسين (ع) ليكونا المرجع التشريعي - بالمعنى المتقدم - للناس، وهذا ما يكشف لنا سرَّ قول النبي (ص) الذي اشتهر عنه:

«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»([15]).

بعد الحسنين (ع):

وشاءت الإرادة الإلهية أن تنتقل هذه السنة المطهرة من صدور طاهرة إلى صدور طاهرة بعد أن يقون كل أمام بدوره الرائد، فأودع الحسين (ع) علوم الإسلام في ابنه زين العابدين (ع) وهو في الباقر (ع)، والباقر (ع) في الصادق (ع)، والصادق (ع) في الكاظم (ع)، والكاظم (ع) في الرضا (ع)، والرضا (ع) في الجواد (ع)، والجواد (ع) في الهادي (ع)، والهادي (ع) في العسكري (ع)، والعسكري (ع) في قائم أهل البيت الحجة المهدي (عج)، لتكتمل به سلسلة النور، وليكون أئمة أهل البيت (ع) مع القرآن توأم التشريع الذي خلفه رسول الله وأمر أمته بالتمسك به.

ميزان التزكية على لسان رسول الله (ص):

من هنا حدَّد النبي (ص) للأمة جمعاء ميزاناً لسيرهم وسلوكهم ولتحقيق هدف وجودهم بقوله المتواتر بين المسلمين:

«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بها لن تضلوا بعدي أبداً، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»([16]).

إذن الميزان الذي رسمه خاتم الأنبياء (ص) هو: الكتاب (ره) أهل البيت (ع).

والمتمأمل في هذا الحديث لاسيما لعطف أهل البيت (ع) على كتاب الله تعالى يُدرك أن المراد الأساس من أهل البيت (ع) هنا هو المتن الديني ليكون هو الميزان والمعيار والمرجع لتحديد الحق من الباطل، فالمتن الديني الأول هو كتاب الله، وهو كما تبين سابقاً بحاجة إلى متمم له، والمتمم وهو السنة النبوية المطهرة، وهذه السنة المباركة بتفاصيلها الكاملة حفظت في الوعاء المطهر لأهل بيت العصمة (ع) فهم حفظتها وخرنتها ومبلغوها، لذا كان من نافلة القول عند بعض علمائنا بأن ما نقل من طرق بعض أهل السنة أن النبي قال: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، (وسنتي) بدل (وعترتي)، لا يبدل مقصود النبي (ص)؛ لأن سنته المباركة لا توجد إلا في عترته الطاهرة.

الثقل الأكبر والثقل الأصغر:

إذن المراد من هذا الحديث المتواتر هو تحديد المتن الديني الذي يكون هو المعيار والميزان والمرجع، من هنا نفهم السر في وصف كتاب الله بالثقل الأكبر والعرة بالثقل الأصغر في بعض نصوص حديث الثقلين كالنص الوارد:

«إني مخلف فيكم الثقلين الثقل الأكبر القرآن، والثقل الأصغر عترتي وأهل بيتي، هما حبل الله الممدود بينكم وبين الله عز وجل ما إن تمسكتم به لن تضلوا» ([17]).

فإرادة المتن الديني تفسر الوصفين الأنفين فالآيات القرآنية هما الثقل الأكبر وأحاديث أهل البيت (ع) (إضافة إلى أفعالهم وتقاريرهم) هما الثقل الأصغر.

حبل الله:

ومن لطيف هذا الحديث هو التعبير عن هذا الميزان (الكتاب والعرة) بحبل الله، فإن من شؤون الحبل أن يتمسك به للنجاة وأيضاً أن يصعد بواسطته نحو الأعلى، وهذا يتناسب مع ما تقدم من الاستعمال القرآني المكثف لكلمتي الصراط والسبيل، فالحبل هو سبيل وصراطه لكنه عامودي وليس أفقياً، ولعل هذا التعبير بالحبل يحمل المعنى الأدبي الراقي للسير والسلوك باتجاه الكمال؛ إذ هو سير صعودي، يشترك مع السير الأفقي بالحركة المنطلقة من السائر، ويمتاز عنه بأن التمسك بالحبل قد يُرفع مع حبله ليصل نحو المبتغى، فتكون سرعة الوصول أكبر وأرقى.

سلام الله على أهل بيت العصمة حينما كانوا يقولون:

«والله لنحن الصراط» ([18]).

وعلى كل، فإن الميزان الذي حدده رسول الله (ص) هو القرآن وأهل البيت (ع)، أو فقل هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأكرم (ص) المتمثلة بشكل أساس بأحاديث أهل بيت العصمة (ع).

وعليه فإن السؤال عن ميزان التمييز بين السير الحق والسير الباطل، التزكية الصحيحة والتزكية الخطأ يأتي جوابه من أحكام الدين والشرع الحنيف والموجودة في الكتاب والسنة، في القرآن والعرة.

فالشريعة الإسلامية المنبثقة من هذين المصدرين هي الميزان.

وتستمر الأسئلة

وعليه إن كان الجواب بأن الميزان هو الشريعة كما تقدم، فإن السؤال الأساس الذي طرحه من أراد جدًّا السير والسلوك وتزكية النفس لا ينقطع عند المقطع السابق من الإجابة لأنه قد يسأل بالحاح: كيف لي أن أتعرف على هذا الميزان وهذه الشريعة بشكل واضح فأهل البيت الشهداء (ع) بقيتهم الأعظم غائب ندعوا الله بتعجيل فرجه ليكفيينا مؤونة السؤال بل الأسئلة الكثيرة.

وأحاديث أهل البيت (ع) والتي تشكل مع القرآن المتن الديني الكامل - بصفتها الحاكية عن السُّنة النبوية المطهرة - منتشرة في منات الكتب التي تزرع بها المكتبة الإسلامية فكيف لي أن أتعرف من خلال هذا التراث الضخم على ما صح من الأحاديث الواردة عنهم (ع)، وأن أقارن بينهما، لأتعرف على الشريعة الحقّة بموضوعية ومنهج سليم؟

الجواب:

إن من الواضح أن هذا الأمر يتسنى ويتحقق لمن تخصص في دراسة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بعد أن حصل المقدمات العلمية التي تحتاج هذه الدراسة إليها، فوصل إلى مرحلة تمكّنه من فهم الشريعة بروية واضحة بعد ذلك الجهد العلمي الكبير الذي خاضه للوصول إلى هذه النتيجة، وهذا الإنسان المتخصص هو الذي يسمى بالفقيه والمجتهد.

وقد أسست الحوزات العلمية الشريفة بهدف أساس هو التخصص في هذه الدراسات لفهم الإسلام، وبالتالي تخريج الفقهاء.

فالفقيه المجتهد يحمّد الله تعالى على توفيقه الكبير لوصوله من خلال نتائج اجتهاده إلى معرفة الميزان الذي من خلاله يميّز السلوك الحق من السلوك الباطل.

معرفة الميزان عند غير المجتهد:

ولكن يا ترى ماذا يفعل بقية الناس الذين لم يصلوا إلى مرحلة الاجتهاد - وهم الأكثر - ليتعرفوا على الميزان - لاسيما في الموارد التي لا يستطيعون فيها الاحتياط؟

إن الجواب المنطقي والذي بنيت عليه السيرة الاجتماعية العقلانية هي أن من لم يتخصص في تلك الدراسات التي يتوقف عليها فهم الإسلام والشريعة المطهرة عليه أن يرجع إلى المتخصص فيها ويعتمد عليه في نتائجه التي توصّل إليها.

وكما يقول الشهيد السعيد محمد باقر الصدر:

«كل مكلف يريد التعرف على الأحكام الشرعية يعتمد أولاً على بداهته الدينية العامة، وما لا يعرفه بالبداهة من أحكام الدين يعتمد في معرفته على المجتهد المتخصص ولم يكلف الله تعالى كل إنسان بالاجتهاد، ومعاونة البحث العلمي من أجل التعرف على الحكم الشرعي توفيراً للوقت وتوزيعاً للجهد الإنساني على كل حقوق الحياة، كما لم يأذن الله سبحانه وتعالى لغبر المتخصص المجتهد بأن يحاول التعرف المباشر على الحكم الشرعي من الكتاب والسنة ويعتمد على محاولته، بل أوجب عليه أن يكون التعرّف على الحكم عن طريق التقليد والاعتماد على العلماء المجتهدين» ([19]).

معرفة الميزان عبر التقليد:

إذن طريق الفقيه إلى معرفة الشريعة التي هي الميزان هو اجتهاده واستنباطه وطريق غير الفقيه إلى معرفة هذا الميزان هو تقليده الفقيه في نتائجه التي توصل إليها.

من هنا كان توجيه أهل البيت (ع) نحو تقليد الفقهاء.

فعن الإمام الحسن العسكري (ع):

«فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه»([20]).

ومن هنا - أيضاً - نفهم سرّ تأكيد أهل البيت (ع) على مكانة العلماء والفقهاء ودورهم.

فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

«من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا، فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حبوناه به جاء يوم القيامة على رأسه تاج من نور يضيء لأهل تلك العرصات وحلة لا يقوم لأقل سلك منها الدنيا بحذاقيرها، ثم ينادي مناد: هذا عالم من بعض تلامذة آل محمد، ألا فمن أخرجه في الدنيا من حيرة جهله، فليتثبت بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات إلى نزهة الجنان»([21]).

ومن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) في قوله تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ...).

إلى قوله:

(وَالْيَتَامَى) ([22]).

قال الإمام (ع):

«أما قوله عز وجل (وَالْيَتَامَى) فإن سول الله (ص) قال: حث الله تعالى على بر اليتامى لانقطاعهم عن آبائهم، فمن صانهم صانه الله ومن أكرمهم أكرمه الله ومن مسح يده برأس يتيم رفقا به جعل الله تعالى له في الجنة بكل شعره مرت تحت يده قصراً أوسع من الدنيا بما فيها وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون».

قال الإمام (ع):

«أشد من يتم هذا اليتيم يتيم ينقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلئ به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا فهدي الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا كان كمن أخذ يتيماً في حجره، ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى، حدثني بذلك أبي عن أبيه عن آبائه عن رسول الله (ص)»([23]).

خلاصة ما تقدم:

إن الميزان والمعيار لتحديد السير الحق من السير الباطل، ولمعرفة الطريق الحق لتزكية النفس يتمثل بالشريعة المنبثقة من القرآن الكريم والسنة الطاهرة والتي ظهرت في أحاديث أهل البيت (ع) الحاكية عن سنة جدهم الأعظم (ص) وأن طريق الوصول إلى هذه الشريعة لعامة الناس هو إتباع الفقهاء المتخصصين في دراسة هذه الشريعة، وذلك بالالتزام بالأحكام الشرعية وهي ما يُطلق عليها وتسمى بـ(ظاهر الشريعة).

الميزان = ظاهر الشريعة:

إنَّ أي انحراف عن الأحكام الشرعية هو انحراف في السير والسلوك، وإنَّ أيَّ مخالفة لظاهر الشريعة في بداية السير والسلوك أو أثناءه هو انحراف عن سبيل الله وعن صراطه المستقيم.

ميزان السير والسلوك على لسان الإمام الخميني (ره):

وهذا ما أكدّه العارف الكبير والفقير المتألّه الإمام الخميني (ره) حينما قال:

«واعلم ... أن طي أي طريق في المعارف الإلهية لا يمكن إلا بالبداية بظاهر الشريعة، وما لم يتأدب الإنسان بأداب الشريعة الحقّة لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، كما لا يمكن أن يتجلى في قلبه نور المعرفة، وتتكشف العلوم الباطنية، وأسرار الشريعة، وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه، سيستمر أيضاً في تأدبه بالأداب الشرعية الظاهرية».

ويتابع الإمام الخميني ما رسمه من ميزان فيقول:

(ومن هنا نعرف بطلان دعوى من يقول: (إن الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر)، أو (إنه وبعد الوصول إلى العلم الباطن ينتفي الاحتياج إلى الآداب الظاهرية).

وهذه الدعوى ترجع إلى جهل من يقول بها، وجهله بمقامات العبادة ودرجات الإنسانية»([24]).

ويطبق الإمام (ره) هذا الميزان على العبادات التي دعا الله تعالى إليها فيقول في عبادة الحج العظيمة:

«هي رأسمال من أفق التوحيد والتنزيه، وسوف لن نحصل على النتيجة ما لم ننفذ أحكام وقوانين الحج العبادية بشكل صحيح ولائق وشعرة بشعرة»([25]).

خلاصة الميزان في كلام الإمام الخميني (ره):

البداية بالسير والسلوك لا بد أن يكون بظاهر الشريعة، والاستمرار بالسير والسلوك لا يكون إلا بظاهر الشريعة والتأكيد على أن الميزان هو ظاهر الشريعة كان في قبال من ادعى أن المطلوب هو الوصول إلى الحقيقة بأي وسيلة كانت، ومع الوصول إلى هذه الحقيقة لا يعود هناك أهمية للالتزام بالأحكام الشرعية، فتسقط هذه التكاليف الظاهرية ليعيش الإنسان السالك في دائرة الحقيقة التي وصل إليها.

إن الإمام الخميني (ره) يؤكد أن هذا انحراف في السير والسلوك فالالتزام بظاهر الشريعة هو الوسيلة في بدء السير والسلوك وهو الوسيلة الدائمة والباقية فيهما.

تطبيقات على ضوء الميزان

بعد أن عرفنا ميزان السير والسلوك تزكية النفس وانه ظاهر الشريعة يمكن لنا الاستفادة من هذا الميزان للحكم على حالات يمارسها البعض باسم السير والسلوك ونعرض فيما يلي أمثلة من تلك الحالات.

الحالة الأولى:

يدّعي البعض أن السير والسلوك لأجل الوصول إلى الحقيقة يبدأ بالتوبة، وبما أن التوبة تكون - عادة - من ارتكاب المحرّم، فإن هذا يبرر ارتكاب السالك ما حرّمه الله تعالى في بداية سيره، وبعده يتوب إلى الله تعالى فيحصل أول خطوة في سيره وسلوكه ليكمّله في الخطوات اللاحقة، وهذا الاتجاه وهو الذي أشار إلى بطلانه الإمام الخميني (ره) في الحديث السابق حيث ذكر (ره) أنه لا يمكن طي أي طريق في المعارف الإلهية بهذه الوسيلة المخالفة للشريعة الحنيفة.

وهذا الاتجاه المنحرف عن الجادة الحق والصواب كان في المجتمعات السابقة على الإسلام المحمدي كما يظهر ذلك من خلال القصة التي وردت على لسان الإمام الصادق (ع) والتي يقول فيها:

«كان عابد في بني إسرائيل لم يقارف من أمر الدنيا شيئاً فنخر إبليس نخرة فاجتمع جنوده، فقال من لي بفلان بن فلان؟ فقال بعضهم أنا له، قال: من أين تأتیه؟ قال من ناحية النساء، قال: لست له، لم يجرب النساء، قال آخر: فأنا له من ناحية الشراب واللذات، قال: لست له، قال آخر: فأنا له من ناحية البر، قال انطلق فانت صاحبه، فانطلق إلى موضع الرجل فأقام حذاه يصلي، قال: وكان الرجل ينام والشيطان لا ينام، ويستريح والشيطان لا يستريح، فتحول إليه الرجل وقد تقاصرت إليه نفسه، واستصغر عمله فقال: يا عبد الله بأي شيء قويت على هذه الصلاة؟ فلم يجبه ثم أعاد عليه، فقال: يا عبد الله إني أذنبت ذنباً وأنا تائب منه، فإذا ذكرت الذنب قويت على الصلاة؛ قال: فأخبرني عن ذنبك حتى أعمله فاتوب، فإذا فعلته قويت على الصلاة قال: ادخل المدينة وسل عن فلانة البغية فأعطها درهمين، ونل منها، قال: ومن أين لي درهمين؟ ما أدري ما الدرهمان فتناول الشيطان من تحت قدمه درهمين فناوله إياهما قال: فقدم المدينة بجلابيبه فسأل عن منزل فلانة البغية، فأرشده الناس، وظنوا أنه جاء يعظها فأرشدوه فجاء إليها بالدرهمين؛ فقال: قومي فقامت ودخلت منزلها، وقالت ادخل، وقالت: إنك جئتني في هيئة ليس يؤتى مثلي في مثلها، فأخبرني بخبرك فأخبرها فقالت له: يا عبد الله إن ترك الذنب أهون عليك من طلب التوبة، وليس كل من طلب التوبة وجدها. وإنما ينبغي أم يكون هذا شيطاناً مثل لك فانصرف، وماتت من ليلتها فأصبحت فإذا على بابها مكتوب حَضَرُوا فلانة؛ فإنها من أهل الجنة، فارتاب الناس ومكثوا ثلاثاً لا يدفنونها ارتياباً في أمرها، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبي من الأنبياء ولا أعلمه إلا موسى بن عمران (ع) إنه أنت (فلانة) فصلّ عليها؛ ومَرَّ الناس أن يصلوا عليها فإني قد غفرت لها، وأوجبت لها الجنة بتثبيطها فلان عبي من معصيتي»([26]).

الحالة

الحكم

السبب

الابتداء بالمحرم

انحراف

خلاف الشريعة

ولعلَّ من أيشع الانحرافات المُدخلة في ما يسمى بالسير والسلوك هو ما سمعته عن بعض الجهلة من عوام الناس المدَّعين، ولم أقرأه في كتاب، وهو أن التكامل في السير والسلوك وبلوغ المقامات العظيمة يكون بمخالفة التكليف الصادر من الولي الإمام (ع).

ويستشهدون بهذه المقولة الشيطانية بشواهد تنمُّ بوضوح عن عدم فهمهم لأبسط مقدّمات فهم اللغة فضلاً عن أصول الفهم وقواعده ومن تلك الشواهد هو أن الإمام الحسين (ع) طلب من أصحابه ليلة العاشر من محرم أن يغادروا ساحة كربلاء بقوله:

«إن هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرّقوا في سوادكم وماندتكم» ([27]).

فالإمام الحسين (ع) حسب دعواهم كلّف أصحابه بالمغادرة لكنّهم عصوه ورفضوا الذهاب، ولأنّهم عصوا هذا التكليف للإمام من دافع حبّهم له فإنهم وصلوا إلى مرحلة الشهادة.

وليت شعري هل يعلم هؤلاء أن صيغة الأمر في لغة العرب استعملت في معانٍ كثيرة أنهاها بعض المحققين إلى خمسة وعشرين معنى، منها التهديد، كقوله تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ).

ومنها التعجيز كقوله تعالى:

(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ).

ومنها الإنذار، كقوله تعالى: (تَمَتَّعُوا ...)

ومنها الإباحة، كقوله تعالى:

(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا).

ومنها الاعتبار، كقوله تعالى:

(انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ).

ومنها الإهانة، كقوله تعالى:

(كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا).

إلى غيرها من المعاني التي تستخدم فيها صيغة الأمر ([28]).

فالعجيب كيف يُستدل بقول الإمام الحسين - رحي فداه - «فاتخذوه جملاً» والذي أراد به أن يختبر أصحابه في تلك الليلة العظيمة أنه يدل على التكليف والوجوب، وهم - والعياذ بالله - قد عصوا تكليف إمامهم.

إني لا أجد خليفة لما نقلته إلا تحريك شيطاني بعنوان مقدّس هو حبُّ أهل البيت (ع) والذين لا شك أنّهم براء من أولئك المنحرفين.

الحالة الثانية:

طرح بعض المنتسبين إلى مدارس السير والسلوك طريقاً لتركيز قلبه وتعلقه بالله تعالى، وخلاصة هذه الطريق هي أن يركز انتباهه إلى أحد المحسوسات، مثل حجر أو جسم آخر، فينظر إليه بالعين الظاهرة مدة، ولا يطبق عينه مهما أمكن، وينتبه بجميع القوى الظاهرية والباطنية إليه، ويستمر على هذه الحال مدة، والأفضل أربعون أو أكثر ([29]) وتجراً بعضهم في بيان هذا الاتجاه بتمثيل آخر هو أن يركز السالك نظره إلى شحمة أذن فاتنة جميلة أو محياً شيخ مرشد بنفس الحجة السابقة التي هي أن اللب حينما ينحصر تعلقه بشيء واحد يستطيع أن يقطع علاقته مع الآخرين، ثم في مرحلة ثانية يقطع هذا الارتباط الوحيد، ليركّز قلبه على الله تعالى ليصل إلى المبتغى المنشود.

وفي مقام بيان الحكم في هذا الاتجاه على ضوء الميزان المتقدم أترك الكلام لسيد العرفاء والفقهاء الإمام الخميني (ره) إذ يقول:

«ومن التصرفات الخبيثة للشيطان، إضلال القلب وإزاعته عن الصراط المستقيم وتوجيهه نحو فاتنة أو شيخ مرشد. ومن إبداع الشيطان الموسوس في صدور الناس، الفريد من نوعه، هو أنه مع بيان عذب ومليح، وأعمال مغرية، قد يعلق بعض المشائخ بشحمة أذن فاتنة جميلة ويبرر هذه المعصية الكبيرة بل لهذا الشرك لدى العرفاء، بأن القلب إذا كان متعلقاً بشيء واحد، استطاع أن يقطع علاقته مع الآخرين بصورة أسرع، فيركز كل توجيهه أولاً على الفتاة الجميلة بحجة أن القلب ينصرف عن غيرها وأنه منتبه إلى شيء واحد ثم يقطع هذا الارتباط الوحيد ويركز قلبه على الحق المتعالي. وقد يدفع الشيطان بإنسان أبله نحو إنسان أبله نحو محياً مرشد مكار وحش، بل شيطان قاطع للطريق ويلتجئ في تبرير هذا الشرك الجليّ إلى أن هذا المرشد هو الإنسان الكامل، وإنه لا سبيل للإنسان في الوصول إلى مقام الغيب المطلق إلا بواسطة الإنسان الكامل، المتجسد في المرأة الأحديّة للمرشد، ويلتحق كل منهما بعالم الجن والشياطين. ذاك - المرشد - بالتفكير في جمال معشوقة ومفاته إلى نهاية عمره وهذا - الإنسان البسيط - بالانتباه الدائم إلى محيا مرشد المنكوس حتى آخر حياته. فلا تنسلخ العلاقة الحيوانية عن المرشد، ولا يبلغ الإنسان الأبله الأعمى إلى منشوده ومبتغاه».

الحالة

الحكم

السبب

تركيز السالك نظره على فتاة جميلة (...) مقدمة لتركيز قلبه على الحق المتعالي

انحراف (شرك العرفاء)

خلاف الشريعة

الحالة الثالثة:

اعتقد البعض أن السالك لا يصل طالما لم يسلم من آفات الجاه والرياء، لذا يبرّر له أن يفعل المحرّمات النافرة بشكل علني ليسقط من أعين الناس، وبالتالي ينجو من الجاه والرياء، فيصنع كما فعل ذلك السالك الذي روى قصته الغزالي فقد سرق ثياباً في الحمام العام وهرب ليلحقه الناس، ويقولون عنه سارق الحمام، وهكذا حصل، فاعتقد أنه وصل إلى النتيجة المطلوبة فسكنت نفسه.

ومن الواضح أن هذا الطريق محرّم إذ لم يفوض الله للإنسان إن يذلّ نفسه فضلاً عن حرمة السرقة الواضحة.

الحالة

الحكم

السبب

فعل الحرام أمام الناس للسقوط من أعينهم وبذلك يسلم من الجاه والرياء

انحراف

خلاف الشريعة

الحالة الرابعة:

حاول بعضهم أن يتخلّى عن حب المال، فباع جميع ممتلكاته، لكنه فكّر أنه إن فرّقه بين الناس قد يحصل عنده الرياء، لذا سلك طريقاً آخر وهو أنه رمى ماله في البحر([30]).

ومن الواضح أن هذا الطريق حرام لأن رمي المال في البحر هو تبذير وهو من المحرّمات الكبائر.

الحالة

الحكم

السبب

رمي المال في البحر للقضاء على حب المال والابتلاء بالرياء

انحراف

خلاف الشريعة

الحالة الخامسة:

سلك بعضهم في سيره وسلوكه اتجاهاً فيه تعذيب شديد للجسد لجعله طيعاً على العبادة، وفي هذا الإطار يروى عن بعض الشيوخ أنه ألزم نفسه بالقيام على رأسه طول الليل؛ لتسمح نفسه بالقيام عن طوع([31]) وحاله هذا كمن يحرق جسده حرقاً خطيراً ليتذكر بذلك جهنم.

ومن الواضح أن تعذيب الجسد الذي يصل إلى حدٍّ كبير وخطير على الإنسان أنه من المحرمات الشرعية.

الحالة

الحكم

السبب

تعذيب الجسد إلى حدٍّ خطير

انحراف

خلاف الشريعة

الحالة السادسة:

ما اشتهر عن بعض الصوفية وعن مجالسهم التي فيها الرقص والسماع ليحصلوا فيها على ما يسمّى بالحال أو الوجد حتى نقل عن الشيخ أبي سعيد أبي الخير إنه كان ذات يوم في ضيافة محمد القائيني، وانشغل هو وجماعته بالسماع والوجد، والرقص، والصياح، وإذا بصاحب البيت أبلغهم حضور وقت الصلاة، فأجاب الشيخ: نحن في الصلاة، فبقوا مستمرين في رقصهم وسماعهم، فتركهم صاحب البيت وانصرف إلى الصلاة ([32]). ومن الواضح أن هذا خلاف الشريعة المطهرة التي دعت إلى الصلاة في أول وقتها معتبرة أنها العمل الأول الذي يوصل إلى الفلاح.

الحالة

الحكم

السبب

ترك الصلاة بحجة أن الغاية تحصل في السماع والرقص الصوفيين

انحراف

خلاف الشريعة

الحالة السابعة:

ما يفعله البعض من ارتكاب محرّمات واضحة باعتبار أن حرمتها تسقط وترتفع بالنسبة للواصل إلى مرحلة معينة من السلوك، كخلع المرأة حجلها أمام رجل أجنبي بحجة أنهما وصلا إلى مرحلة عالية في سيرهما وسلوكهما، وعليه سقطت التكاليف الظاهرية عنهما.

فهذا انحراف واضح وأنها شيطنة متلبسة بلبوس ديني.

الحالة

الحكم

السبب

ارتكاب بعض المحرمات الظاهرة باعتبار سقوطها عن وصل إلى مرحلة عالية في السير

انحراف

خلاف الشريعة

الحالة الثامنة:

يبّرر البعض للسالك أن يترك الفريضة الإلهية الهامة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حال أدّى إلى غضب السالك وتكدر فكره وانكسار ذهنه وهذا ما نلاحظ من خلال النص التالي وهو موجّه من أحد (السالكين):

«حوّل النجاسة إلى غيرك لا إلى نفسك، فلو رأيت مثلاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤديان إلى حالتي الغضب وتكدر الفكر، وانكسار الذهن، وهذا أضر عليك مما يوجب ارتكاب الجرم والحرام من الضرر على ذاك الفاعل، فاتركه على حاله واحتفظ أنت بصفاء نفسك»([33]).

ومن الواضح أن هذا خلاف الشريعة التي أمرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ميزان موهوم: خوارق العادات

يظن بعض الناس أن حدوث ما يظن أنه خارق للعادات من أعمال بعض (السالكين) وهو دليل على أن سيرهم هو حق وأنه يوصل إلى الحقيقة، لذا ترى البعض يستدل على صلاح الآخر وأنه أهل ليكون المرشد والمربي في السير والسلوك بما سمعه منه من قراءته لخواطر الآخرين وما يفكرون به، أو بأمر مغيب كحصول أمر في منطقة ما، في زمان ما، ثم يحصل ما أخبر به، أو يستدل على صلاحه وأهليته للتربية والرشاد بما يراه منه من عبور على النار ونحو ذلك وكثير من الناس حينما يسمعون، بمثل ما مرّ أو يرونه فينبهون، مما يولد فيهم خضوعاً لذلك الإنسان. واستعداداً لإطاعته التامة في أمر مهما كان أمره!!.

مكاشفات وخوارق الكفار:

وفي مقام الجواب على مثل هذه الحالات نعرض الكلمات المنسوبة إلى عرفاء معروفين، ففي الرسالة المنسوبة إلى السيد بحر العلوم:

ويجب الحذر، وعدم الانخداع بظهور خوارق العادات، وبيان دقائق النكات، وإظهار الخفايا الآفاقية، والخفايا الأنفسية، وتحويل بعض حالاته بمتابعة حالات ذلك: لأن الإشراف على الخواطر، والإطلاع على الدقائق، والعبور على الماء والنار، وقطع الأرض والجو، والإخبار عن المستقبل، أمثالها، تحصل في المرحلة المكاشفة الروحية، والطريق من هذه المرحلة إلى الهدف طريق بلا نهاية، والمنازل والمراحل كثيرة، وكثيرون قطعوا

هذه المرحلة، وبعد ذلك انصرفوا عن الطريق إلى وادي اللصوص والأبالسة، ومن هذا الطريق يحصل لكثير من الكفار اقتدار على كثير من هذه الأمور([34]).

إن يصرح صاحب هذا النص أن الحالات الخارقة تكون مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا يدل ثبوتها على الكمال.

مكاشفات وخوارق المضلين:

وفي كلام آخر في هذه الرسالة يقول:

«ومن الحالات التي يحظى فيها أغلب الناس المتدينين أن يحسب الاشتغال بالختومات والأوراد المختلفة سيراً معنوياً ومقامات روحانية، ويستهلك أوقاته الثمينة باسم الذكر والورد والختم في أهداف دنيوية وأغراض نفسانية.

ويمكن الادعاء بأن أغلب أمثال هؤلاء الأشخاص يستهلكون عمرهم العزيز في هذه البرامج، ويسينون الاستفادة من هذه الأمور، ويقومون بأعمال على خلاف الحق، وتظاهرات نفسانية، وإضلال الآخرين، وإهانة الحقائق والمعارف الإلهية قولاً وعملاً ينصرفون، ويضلون تماماً عن صراط الحق والسير الإلهي الخالص.

فيجب أن يكون متنبهاً جيداً، ولا ينخدع بهؤلاء الأفراد، وليعلم أن هؤلاء من قطاع طريق الحقيقة والإخلاص، وإن أظهروا من أنفسهم خوارق وغرائب، وهذا النوع من الأفراد موجود في جميع الأقسام والشعوب، وحتى عند الأقسام الوثنية، الذين يصلون إلى مقام مكاشفات روحانية ونفوذ روي بأوراد ورياضات صعبة، ولكنهم محرومون تماماً من مقام القرب والعبودية والإخلاص والمعارف الإلهية»([35]).

مكاشفات وخوارق عبدة البقر:

وقد أورد البعض أن أحدهم سأل السيد هاشم الحداد ما يلي: لقد ثبت أن بعض مرتاضي الهند من عبدة البقرة يخبرون بحسب حركات البقر وسكناته عن بعض المغيبات. كوقوع الثورة في كذا مكان من أقصى نقاط الشرق أو الغرب، ثم تنكشف صحة الخبر، فما علاقة ذلك بحركات البقر؟

فأجاب الحداد: أن ذلك راجع إلى الارتباط الوثيق الثابت فيها بين موجودات العالم، وبما أن هذا المرتاض وصل عن طريق الرياضة إلى مستوى كشف وحدة النظام الحاكم على العالم، أصبح باستطاعته الإخبار بواسطة أي حركة أو سكون ولو كان بشكل لا ترى له أهمية عن جميع التغييرات والتبديلات والحركات والسكنات في العالم، وكما أن هذا المرتاض الهندي يرتبط بواسطة الرياضات النفسانية بالروح الكلية للبقرة، فاستطاع أن يرتبط بذلك النظام الواحد عن طريق أرواح البقر، فأصبح يخبر عن الرموز الخفية بواسطة شبكة البقر، كذلك بإمكان أحد أن يصل إلى نفس المستوى بعبادته للطير أو الهر أو النجوم أو الشمس أو القمر وبالرياضة النفسانية التي توصله إلى النفوس الكلية لأحد هذه الأمور أو غيرها، فيستدل - عندئذ - عن طريق ذلك الشيء الذي ... فيه على ما يحكمه ذلك النظام الوجداني، ولكن بما أن الإنسان أشرف المخلوقات لا ينبغي له أن يفني نفسه في نفوس أنزل من نفسه أو فيما يساوي نفسه، فإن هذا الفناء مستلزم لسقوط الإنسان وانحطاطه عن درجة الإنسانية، ولهذا نهى الإسلام عن عبادة البقر والنجم والحجر والملائكة والأجنة وعبادة إنسان آخر وما إلى ذلك([36]).

وهذا الكلام الذي هو على عهدة من تكلم به يدل على اعترافه أن لا علاقة بتقوية جنبه الروح وصدور بعض الخوارق مع القرب من الله تعالى والسير الحق الصحيح.

كل ما هنالك أن ما يحصل منهم يكون «نتيجة المشي على بعض قوانين الطبيعة، ويصل إليها كل إنسان يلتزم بسلوك ذلك الطريق الطبيعي من دون فرق بين أن يكون مسلماً أو ملحداً أو مشركاً» ([37])، وهذا يختلف عن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء.

الخياط وخوارق العادات:

وفي كتاب كيمياء المحبة الذي كتب فيه العلامة محمدي الريشهري لمحات من حياة العارف الشيخ رجب علي الخياط الطهراني (رحمه الله) نقل عن الأخير قوله:

«لا توقنوا بالمكاشفات ولا تعتمدوا عليها إطلاقاً، وإنما يجب أن تتخذوا من أقوال الأئمة وأفعالهم قدوة لكم على الدوام» ([38]).

وفي نفس الكتاب ينقل أحد أبناء الشيخ رجب (رحمه الله):

«ذهبت ذات مرة برفقة أبي إلى جبل (بي بي شهربانو) في الطريق التقينا شخصاً من أهل الرياضة الروحية، وكان يدعي بعض الادعاءات فسأله أبي: ما حصيلّة رياضتك؟

فانحنى ذلك الرجل والتقط حجراً من الأرض وحوله إلى كمشى، وقال لأبي: (تفضل كل!) فقال له أبي: حسناً فعلت هذا العمل لي، ولكن قل لي ماذا عملت لله؟ ماذا قدّمت له؟ وعندما سمع المرتاض هذه الكلمات من أبي بكى!» ([39])

[1] انظر: وجدي، محمد فريد، دائرة المعارف القرن العشرين، بيروت، دار الفكر، ج5، ص585.

[2] انظر: المطهري، مرتضى، الكلام العرفان، تعريب علي خازم، ط1، بيروت، الدار الإسلامية 1992م، ص86.

[3] الحائري، كاظم، تركية النفس، ط1، قم، مؤسسة الفقه/ 1421هـ، ص143.

[4] انظر: المطهري، مرتضى، الكلام العرفان، تعريب علي خازم، ص122.

[5] الحائري، كاظم، تركية النفس، ص145.

[6] انظر: المطهري، مرتضى، الكلام العرفان، تعريب علي خازم، ص86.

[7] انظر: بحر العلوم، محمد مهدي، رسالة في السير والسلوك، تعليق حسن المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، ط1، بيروت، دار الروضة 1414، ص125.

(ملاحظة يشكك جملة من المحققين في نسبة هذه الرسالة إلى السيد بحر العلوم).

[8] سورة الفرقان، الآية/1.

[9] سورة الحج، الآية/7.

[10] المطهري، مرتضى، الإمامة، ترجمة علي كسار، ط1، قم، مؤسسة أم القرى، ص77.

[11] المطهري، مرتضى، الإمامة، ترجمة علي كسار، ط1، قم، مؤسسة أم القرى، ص77.

[12] الصفار، بصائر الدرجات، قم، بصيرتي، ص198.

انظر كتابنا «حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة» ط1، بيروت دار الصفوة.

[13] حلية الأولياء، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1409هـ، ج1، ص67.

- الجويني، فرائد السمطين، تحقيق المحمودي، بيروت، مؤسسة الرسالة 1409هـ، ج13، ص136.

- العلامة الحلي، كشف اليقين، تحقيق على آل كوثر، ط1، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ص52.

- انظر كتابنا (حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة)، ص146.

[14] الترمذي، الجامع الصحيح، بيروت دار إحياء التراث، ج5، ص637.

- الحلي، كشف اليقين، ص57، الاربلي كشف الغمة، بيروت، دار الكتاب الإسلامي، ج1، ص113. الهندي، كنز العمال، ج13، ص148. القندوزي، ينابيع المودة، بيروت، الأعلمي، ص70.

[15] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج10، ص78.

[16] ابن جرير الطبري، محمد، المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، تحقيق المحمودي، ط1، قم، مؤسسة الثقافة الإسلامية، 1415هـ، ص560، (انظر كتاب، (حديث الثقلين) الذي طبع في القاهرة من قبل دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد جمع فيه أسانيد هذا الحديث في كتب أهل السنة).

[17] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط3، بيروت، دار الوفاء، 1983، ج92، ص102.

[18] المشهدي، محمد، تفسير كنز الدقائق، تحقيق العراقي، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، 1407هـ، ج1، ص60.

[19] الصدر، محمد باقر، الفتاوى الواضحة، ط6، بيروت، دار التعارف، ص90.

[20] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة/ تحقيق الشيرازي، ط5، بيروت، دار أحياء التراث العربي/ 1403هـ ج18، ص95.

[21] الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد، تحقيق الحسيني، بيروت، دار المرتضى، 1418هـ، ص31، 32.

([22]) سورة البقرة، الآية/83.

([23]) الشهيد الثاني، منية المريد، ص31.

([24]) الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، ترجمة الغروي، قم، دار الكتاب الإسلامي، ص25.

([25]) الخميني، روح الله، أبعاد الحج، ط1، بيروت، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، 1422هـ، ص20.

([26]) التويسركاني، محمد، لئالي الأخبار، طهران، ... ج1، ص124.

([27]) المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين (ع)، قم، دار الثقافة، 1411هـ، ص212-213.

([28]) انظر: المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، ط2، قم، إسماعيليان، 1408هـ، ص63.

([29]) انظر: الرسالة المنسوبة إلى بحر العلوم بعنوان رسالة في السير والسلوك، شرح وتحقيق حسن المصطفوي، تعريب لجنة الهدى، ط1، بيروت، دار الروضة، 1414هـ، ص133.

([30]) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص143.

([31]) انظر: المرجع السابق.

([32]) المرجع السابق، ص142.

([33]) المرجع السابق، ص142.

([34]) بحر العلوم، محمد مهدي، رسالة في السير والسلوك، تحقيق المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، ط1، بيروت، دار الروضة، 1414هـ، ص121.

([35]) بحر العلوم، محمد مهدي، رسالة في السير والسلوك، تحقيق المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، ط1، بيروت، دار الروضة، 1414هـ، ص121.

([36]) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ط1، قم، مؤسسة الفقه، 1421هـ، ص137-138.

([37]) المرجع السابق، ص140.

([38]) الريشهري، محمدي كيمياء المحبة، ط1، بيروت، دار الولاء، 1423هـ، ص39.

([39]) المرجع السابق، ص41 - 42.

الفصل الثالث: قاعدة السير والسلوك

قاعدة الموازنة

على ضوء الشريعة الغراء والتي هي ميزان السير والسلوك تتضح قاعدة أساسية فيه ألا وهي الموازنة بين أمرين اهتمت الشريعة بهما معاً، ورفضت الاكتفاء بواحدة منهما دون الآخر وهما:

1- الاهتمام بالمعنويات الفردية.

2- الاهتمام بالحياة الاجتماعية.

فقد رفض الإسلام الاقتصار على جانب التربية الروحية الفردية بالابتعاد عن المجتمع والعزلة عنه، فرسم الرسول الأكرم (ص) خطأً عريضاً واضحاً في ذلك حينما قال:

«لا رهبانية في الإسلام»([1]).

وحيثما قال:

«من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم».

كما رفض الإسلام الاقتصار على العمل الاجتماعي بعيداً عن الجانب الروحي والمعنوي الفردي داعياً إلى تعزيز هذا الجانب باعتباره خير منطلق لعمل الإنسان.

والتفصيل في قاعدة الموازنة هذه يظهر فيما يلي:

قاعدة الموازنة

الإهتمام بالحياة المعنوية الإهتمام بالحياة الاجتماعية

الاهتمام بالحياة المعنوية

في ضل الحياة المادية التي يعيش الإنسان في أجوائها دعا الإسلام إلى تعزيز الحالات المعنوية وترقيق([2]) حجاب المادة لتحلق الروح في رحاب الله تعالى، وذلك في مواطن عديدة منها:

صلاة الليل:

حيث يقوم الإنسان في خلوته مع الله تعالى ليصلي في جوف الليل متهجداً متبتلاً لله تعالى. وقد ورد في فضلها الأحاديث الكثيرة منها:

ما ورد عن الإمام الصادق (ع):

«ما من عمل حسن يعملُه العبد إلا وله ثواب في القرآن ألا صلاة الليل فإن الله لم يبيّن ثوابها لعظيم خطرهِ عنده فقال: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)»([3]).

وقد أشار القرآن الكريم إلى عظمة الاختلاء بالله تعالى في الليل وصلاته بقوله:

(أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) ([4]).

وقد فسر الإمام الباقر (ع) هذه الآية بصلاة الليل ([5]).

وكذا فسر صلاة الليل قوله تعالى:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) ([6]).

وكذلك قوله تعالى في أوصاف عباد الرحمن:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) ([7]).

ولأهمية الخلوة مع الله تعالى في صلاة الليل ورد عن النبي (ص) قوله:

«ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل الأخير خير له من الدنيا ومن فيها، ولولا أنني أشق على أمتي لفرضتها عليها» ([8]).

من هنا كانت صلاة الليل الوصية النبوية لأمير المؤمنين (ع) حين قال له:

«يا علي، أوصيك في نفسك بخصال أحفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه - إلى أن قال - وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل...» ([9]).

آثار صلاة الليل:

وكترت الروايات المخبرة عن آثار هذه النافلة العظيمة ومنها ما يظهر من خلال ما يلي:

- سئل الإمام علي بن الحسين (ع): ما بال المتجهدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟

قال (ع):

«لأنهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره» ([10]).

- وعن الإمام الصادق (ع):

«إن البيوت التي يصلى فيها بالليل بتلاوة القرآن تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض» ([11]).

- وعن الإمام الصادق (ع):

«صلاة الليل تحسن الوجه، وتحسن الخلق، وتطيب الريح، وتدر الرزق، وتقضي الدين، وتذهب الهم، وتجلو البصر» ([12]).

المناجاة

فقد دعا الإسلام أن يناجي العبد ربّه كحالة الحديث عن السرّ الذي هو معنى النجوى ([13])، وهذا ما يكون في حالة الاختلاء مع الله تعالى.

ولعل من أروع المناجاة ما كان يؤكد عليها الإمام الخميني (ره) وهي المناجاة الشعبانية التي ورد فيها:

«الهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك».

الاعتكاف

فقد دعا الإسلام إلى خلوة خاصة أقلها ثلاثة أيام في مكان خاص هو بيت الله ([14])، بشروط خاصة منها الصيام وإطالة عدم الخروج من ذلك المكان، بأحكام خاصة حيث لا التذاذ بالطيب ولا بيع ولا شراء، إنها عبادة يبتعد فيها الإنسان عن ملذات الدنيا، وعن ما اعتاده من شؤون حياته ليختلي مع الله تعالى هادفاً ترقيق حجي المادة.

قال الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر (ره):

«يبدو أن الشريعة الإسلامية بعد أن ألغت فكرة الترهيب والاعتزال عن الحياة الدنيا، واعتبرتها فكرة سلبية خاطئة (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)، شرّعت الاعتكاف ليكون وسيلة موقوتة وعبادة محدودة تؤدى بين حين وآخر، لتحقيق نقله إلى رحاب الله يعمق فيها الإنسان صلته برّبّه ويتزوّد بما تتيح له العبادة من زاد، ليرجع إلى حياته الاعتيادية، وعمله اليومي، وقلبه أشد ثباتاً، وإيمانه أقوى فاعلية» ([15])

الحياة المعنوية في سيرة النبي (ص) وأهل بيته (ع)

الرسول الأكرم (ص)

من الجلي الواضح في حياة الرسول الأكرم (ص) اهتمامه بالجانب المعنوي في علاقته بالله تعالى، فكان يختلي بنفسه مع الله تعالى متعباً نفسه بالعبادة حتى أنزل الله تعالى:

(طه ، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) ([16]).

وروي أنه كان عند إحدى زوجاته فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك؟! وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأجابها:

«ألا أكون عبداً شكواً» ([17]).

أمير المؤمنين (ع):

ورد عن أمير المؤمنين (ع):

«ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (ص): (صلاة الليل نور)».

فقال ابن الكوّاء: ولا لليلة الهرير؟

قال (ع):

(ولا لليلة الهرير)([18]).

وروي عن عروة بن الزبير أنه قال: كنا جلوساً في مجلس في مسجد رسول الله (ص) فتذكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم ألا أخبركم بأقل القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟

قالوا: من؟

قال: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

قال: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلا معرض عنه بوجهه. ثم انتدب له (أي أجابه) رجل من الأنصار فقال له: يا عويمر، لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها.

فقال أبو الدرداء: يا قوم، إنّي قائل ما رأيته، وليقل كلّ قوم منكم ما رأوا، شهدت علي بن أبي طالب (ع) بشويحطات([19])النجار، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممّن يليه، واستتر بمغيلات النخل فافتقدته وبعّد عليّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجي، وهو يقول:

«الهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك([20])، وكم من جريرة تكرّمت عن كشفها بكرمك، الهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر. فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه، فاستترت له، وأخملت الحركة، فرجع ركعات في جوف الليل الغابر([21]).

ثم فرغ من الدعاء والبكاء، والبث والشكوى، فما كان مم به الله ناجاه أن قال:

«الهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي»

ثم قال:

«آه، إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها فتقول: خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبليته، يرحمه الملائكة إذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال:

«آه، من نار تنضج الأكباد والكلى([22]) آه من نار نزاعة للشوى، آه من غمرة من ملهبات([23]) لظى»

قال: ثم أنعم([24]) في البكاء، فلم أسمع له حساً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقفه لصلاة الفجر.

قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته فلم يتحرك وزويته فلم ينزرو، فقلت:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ..

مات والله علي بن أبي طالب.

قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم.

فقال فاطمة (ع):

«يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وقصته؟».

فأخبرتها بالخبر.

فقال (ع):

«هي - والله، يا أبا الدرداء - الغشبية التي تأخذه من خشية الله».

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر ألي وأنا أبكي، فقال (ع):

«مما بكائك، يا أبا الدرداء؟».

فقلت مما أراه تنزله بنفسك.

فقال (ع):

«يا أبا الدرداء، فكيف ولو رأيتني ودعي بي إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء ورحمني أهل الدنيا، لكنك أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية».

فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (ص) ([25]).

وعن عبادة أمير المؤمنين (ع) يقول ابن أبي الحديد:

وأما العبادة فكان علي (ع) أعبد الناس وأكثرهم صلاةً وصوماً، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة، وما ظنك برجل بلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصّفين ليلة الهير، فيصلّي عليه ورده والسهم تقع بين يديه، وتمرّ على صماخيه يميناً وشمالاً، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته! وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنة ([26]) البعير لطول سجوده.

وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه، وإجلاله، وما يتضمّنه من الخضوع والخشوع لعزّته، والاستخاء له، عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت، وعلى أي لسان جرت.

وقيل لعلي بن الحسين (ع) - وكان الغاية في العبادة -: أين عبادك من عبادة جدك؟

قال (ع):

«عبادتي عند عبادة جدي، كعبادة جدي عند عبادة رسول الله (ص)»([27]).

فاطمة الزهراء (ع)

في أسماء سيدة نساء العالمين (ع) دلالة على رقيّها المعنوي، فمن أسمائها - كما في رواية الإمام الصادق (ع)([28]) (الزكية)؛ لأنها زكت نفسها، وعنها ورد عن أبيها الإمام الحسن (ع):

«رأيت أمي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تنزل راحة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح...»([29]).

وعنها قال الحسن البصري: ما كان في الأمة أعبد من فاطمة كانت تقوم حتى تورم قدمها([30]).

الإمام الحسن (ع)

وكما سميت أمّه الزكية لتزكية نفسها سمي الإمام الحسن بالزكي لذلك، وعن الإمام الصادق (ع):

«حدثني أبي عن أبيه إن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) كان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجّ ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى وإذا ذكر البعث والنشور بكى وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره وشهق شهقة يغشى عليه منها، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائضه بين يدي ربّه عزّ وجلّ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوّذ من النار»([31]).

وجاء في روضة الواعظين أن الحسن بن علي (ع) كان إذا توضأ ارتعدت مفاصله، واصفر لونه، ف قيل له في ذلك فقال:

«حق على كل من وقف بين يدي رب العرش أن يصفرّ لونه، وترتعد مفاصله»([32]).

الإمام الحسين (ع)

وفي اهتمامه بالمعنويات ورد أنه قيل للإمام السّجاد (ع): ما أقل ولد أبيك؟

قال (ع):

«العجب كيف ولدت له! لقد كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرغ للنساء»([33]).

وقد اشتهرت بين الرواة مواقفه في عرفات أيام موسم الحج، ودعاؤه المعروف بدعاء عرفة الذي يعرج بروح المؤمن إلى قمم العرفان، ومما جاء في هذا الدعاء:

«إلهي لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب لو عمرتها أن أؤدي شكر واحدة من نعمك ما استطعت ذلك إلا بمنك الموجب عليّ شكراً جديداً، اللهم اجعلني أخشاك كائي أراك، واجعل غناي في نفسي واليقين في قلبي والإخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني ... إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى

دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عمين عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم يجعل لك من حبه نصيباً...»([34]).

وتظهر قمة عرفان الإمام الحسين (ع) في كربلاء حينما اشتد به الحال فرفع صوته إلى السماء وقال:

«اللهم متعال المكان عظيم الجبروت شديد المحال غني عن الخلايق عريض الكبرياء قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريباً إذا دُعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة، لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، تدرك ما طلبت، شكور إذا شكرت، ذكور إذا ذكرت، أدعوك محتاجاً وأرغب إليك فقبراً! وأفرع إليك خانفاً وأبكي مكروباً، واستعين بك ضعيفاً وأتوكل عليك كافياً اللهم احكم بيننا وبين قومنا فإنهم غرونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد (ص) الذي اصطفيته بالرسالة وانتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين»([35]).

نكتفي بما مرَّ من بيان جانب من اهتمام النبي وأهل بيته (ع) بالأمور المعنوية تاركين تفصيل ذلك للكتب المختصة لاسيماً فيما يتعلق بالحالات المعنوية لباقي أئمة أهل البيت (ع) من أبناء الإمام الحسين (ع).

إفراط في المعنويات:

انتهج البعض منهجاً خاصاً في تركية النفس والسير والسلوك يقتصر على الاختلاء مع الله تعالى والابتعاد عن المجتمع وقضاياه، لذا فإن هؤلاء يرون في المنزلة السبيل لتكامل الإنسان ووصوله إلى هدفه.

وقد تأثر هؤلاء في منهجهم بجملة من الأمور نشير منها إلى أمرين:

الأول: ما مرَّ معنا من إيلاء الإسلام وسيرة النبي وأهل بيته (ع) الجانب المعنوي الأهمية الكبرى - كما اتضح سابقاً.

الثاني: نظرة هؤلاء إلى الدنيا نظرة سلبية تتقرب في سلبيتها إلى الإطلاق، مستشهدين لهذه النظرة بنصوص دينية وردت في القرآن والأحاديث الشريفة.

الدنيا في القرآن والأحاديث الشريفة (نظرة السلب):

ففي القرآن الكريم عدة آيات كريمة تتحدث عن الدنيا في إطار يتجه نحو جانب سلبي وضعه أولئك نصب أعينهم كقوله تعالى:

1- (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) ([36]).

2- (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) ([37]).

3- (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) ([38]).

وفي الأحاديث الشريفة الكثيرة مما يضع الدنيا في تلك الخانة السلبية نعرض منها:

- إن رسول الله (ص) وقف على مزبلة فقال:

«هلموا إلى الدنيا»

وأخذ خرقاً وقد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت.

فقال (ص):

«هذه الدنيا»([39]).

- عن أمير المؤمنين (ع):

«الدنيا مصرع العقول».

«الدنيا معدن الشر ومحل الغرور».

«الدنيا سوق الخسران»([40]).

- عن الإمام الكاظم (ع):

«مثل الدنيا مثل الحية، مسّها لين، وفي جوفها السمّ القاتل، يحذرها الرجال ذوي العقول، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم»([41]).

هذا إضافة إلى الروايات التي تحدثت عن خطورة حب الدنيا كالحديث المشهور عن الإمام الصادق (ع):

«رأس كل خطيئة حب الدنيا»([42]).

وكالحديث القدسي:

«لو صلى العبد صلاة أهل السماء والأرض، ويصوم صوم أهل السماء والأرض ويطوي من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العاري، ثم أرى في قلبه من حب الدنيا أو سمعتها أو رئاستها أو حليها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعت من قلبه محبتي»([43]).

ضيق النظرة في الموقف من الدنيا:

وقد تأثر أولئك بتلك الآيات والروايات مبرّرين بها عزوفهم عن العمل الاجتماعي، واقتصار حياتهم على العزلة الخاصة مع الله تعالى، والملاحظ في نظرتهم هذه والتي أثرت في مسلكهم أنها اقتصرت على الأخذ بجانب من النصوص الدينية الواردة، تاركة جانباً آخر لابد من ملاحظته لفهم موقف الإسلام من الدنيا.

ففهم موقف الإسلام من الدنيا أو غيرها من الأمور لا يتم من خلال قراءة تجزئية لبعض النصوص الواردة حول ذلك الأمر، بل لابد من قراءة موضوعية تطل على مجموع النصوص الواردة والتي ينبثق قواعد وأساسيات في فهم كثير من المطالب المبتغاة، فالقارئ للآيات والروايات السابقة حينما يقتصر في قراءته عليها فإن الموقف من الدنيا لن يخرج من دائرة السلب،، ولكن حينما ننظر إلى الآيات والروايات الشريفة

الأخرى فإن الموقف سيختلف، ولتوضيح الأمر سأعرض جانباً من آيات القرآن والروايات حول الدنيا وردت بنمط آخر لابد من ضمها مع النمط الأول لتحديد الموقف النهائي.

الدنيا في القرآن والأحاديث (نظرة الإيجاب):

* قال تعالى:

- (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) ([44]).

- (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ([45]).

- (وَلَنُغْنِمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ).

علق عليها الإمام الباقر (ع) فقال:

«الدنيا» ([46]).

* وعن الرسول الأكرم (ص):

«لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن، فعلوها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر، إنه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا. قالت الدنيا: لعن الله أعصانا للرب» ([47]).

* وورد أن أحدهم ذم الدنيا فقال له أمير المؤمنين (ع):

«أيها الدّام للدنيا المغتر بغورها المنخدع بأباطيلها أتغتر بالدنيا ثم تذمها! أنت المتجرّم عليها، أم هي المتجرمة عليك؟! متى استهوتك، أم متى غرّتك؟!

إن الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط

وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة» ([48]).

- وعن الإمام الكاظم (ع):

«اجعلوا لأنفسكم حظاً من الدنيا باعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروة وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدين فإنه روي: ليس منا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه» ([49]).

وفي حب الدنيا ورد:

* عن الرسول الأكرم (ص):

«ليس من حبّ الدنيا طلب ما يصلحك» ([50]).

* وعن أمير المؤمنين (ع):

«الناس أبناء الدنيا، ولا يُلام الرجل على حبِّ أمه»([51]).

* وعن ابن أبي يعفور: قلت لأبي عبد الله (ع): «أنا لنحب الدنيا».

فقال لي:

«تصنع بها ماذا».

قلت: «أتزوج منها، أحج وأنفق على عيالي وأنيل أخواني، وأتصدق»

قال لي:

«ليس هذا من الدنيا هذه من الآخرة»([52]).

النظرة الموضوعية من الدنيا:

إن المتأمل في مجموع النصوص الواردة حول الدنيا يخلص إلى نتيجة واضحة هي أن الإشكالية ليست في الدنيا بما هي دنيا، بل هي في علاقة الإنسان بالدنيا.

وعلى حدّ تعبير أمير المؤمنين (ع) المتقدم:

«أنت المتجرّم عليها، أم هي المتجرمة عليك».

وعليه فالنصوص التي تتحدث عن عدم استقرار الدنيا وهزالتها كانت في صدد تنبيه الإنسان أنها غير صالحة لاتخاذها غاية نهائية للإنسان، لذا نهته أن يحبها كغاية بل أن حبها حينئذ يكون رأس كل خطيئة، أما تعامل الإنسان مع الدنيا على أساس أنها وسيلة للآخرة، فهذه العلاقة غير مذمومة، بل هي ممدوحة وحبُّها مبرّر، ولعل من أروع وأجمل ما عبّر عن هذا التفصيل بين دنيا الغاية ودنيا الوسيلة هو ما ورد عن سيد الفصحاء وأمير البلغاء علي بن أبي طالب (ع):

«من أبصر بها بصّرتّه، ومن أبصر إليها أعمته».

فنظرة (باء) الوسيلة تؤدي إلى البصيرة، ونظرة (إلى) الغاية تؤدي إلى العمى([53]).

ومع أن البحث طويل، إلا أننا نكتفي بما مر، فهو يصلح كمقدمة للدخول في بيان اهتمام الإسلام بالحياة الاجتماعية ليوافق المومن بينها وبين المعنويات الفردية.

الاهتمام بالحياة الاجتماعية

أ - القرآن والحياة الاجتماعية

مع حثّه على إيلاء الحالات المعنوية الاهتمام الكبير بيّن القرآن الكريم أن الله تعالى قد استخلف الإنسان في الأرض:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ([54]).

واستخلافه فيها يتحقق من خلال إحيائها واستثمارها على قاعدة محورية للإنسان فيها، كما بين الله تعالى أن الهدف من وجود الإنسان والذي يتحقق من خلال السير والسلوك في سبيل الله يتجلى من خلال العمل الاجتماعي الصالح فالآيات القرآنية التي تتحدث عن السير والسلوك في سبيل الله ذكرت عناوين كثيرة لهذا السلوك تنصب في خاتمة خدمة الناس ومن هذه العناوين:

1- إنفاق المال: قال تعالى:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) ([55]).

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ...) ([56]).

2- الجهاد والقتال: قال تعالى:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ) ([57]).

وقال تعالى:

(كَمْ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ([58]).

3- الهجرة: قال تعالى:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) ([59]).

4- الشهادة:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا) ([60]).

واللافت في القرآن الكريم مدحه الكبير للعاملين في خدمة الناس ونفعهم كما ورد في سورة الإنسان في قصة إطعام أهل البيت (ع) للمسكين واليتيم والأسير.

فقد ورد أن الإمامين الحسن والحسين (ع) مرضا - وهما صغيران - فنذر أبوهما علي وأمهها فاطمة (ع) إن عافهما الله أن يصوما ثلاثة أيام، وكذا فعل الحسن والحسين (ع) مع صغر سنهما، واقتدت بهم خادمتهم فضة.

حينما برئا، أصبحوا صياماً وليس عندهم طعام، فانطلق علي (ع) إلى يهودي وأخذ منه جرة من صوف على أن تغزلها السيدة الزهراء (ع) مقابل ثلاثة أصوع من الشعير، فغزلت (ع) ثلث الصوف ثم طحنت صاعاً من الشعير وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراص، فلما جلسوا خمستهم يتناولوا الطعام إذا مسكين على الباب يقول: السلام عليكم يا أهل بيت محمد أنا مسكين من مساكين المسلمين أطعموني مما تأكلون أطعمكم الله من موائد

الجنة، فوضع علي (ع) اللقمة من يده وأعطى قرصه للمسكين وكذا فعلت فاطمة (ع) وكذا فعل الحسنان (ع)، فباتوا جوعاً وأصبحوا صياماً، لم يذوقوا إلا الماء.

وفي اليوم الثاني غزلت السيدة فاطمة (ع) ثلث الصوف الآخر وطحنت صاعاً من الشعير وعجنته وخبزته خمسة أقرص، فلما جلسوا خمستهم ليتناولوا الطعام إذا بيتيم علي الباب يقول: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، أنا يتيم من يتامى المسلمين أطعموني مما تأكلون أطعمكم الله من موائد الجنة، فدفع جميعهم الطعام إلى هذا اليتيم وباتوا جوعاً وقاموا صياماً.

وتكرّر المشهد في اليوم الثالث حينما وقف علي الباب أسير من أسرى المشركين يقول: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا، ففعلوا كما فعلوا بالأمس وقبله وباتوا جوعاً واستيقظوا ليأتي إليهم نبي الإسلام بالبشرى الكبرى وهو قوله تعالى:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا...) ([61]).

ب - الأحاديث الشريفة والحياة الاجتماعية:

بيّن أهل البيت (ع) سموّ العمل الاجتماعي في خدمة الناس من خلال الحديث القدسي: قال الله (عزّ وجلّ):

«الخلق عيالي فأحبهم إليّ من أطفهم بهم، وأسعاهم في حوائجهم» ([62]).

كما بيّنوا (ع) الثواب العظيم والكرامة الإلهية التي جعل الله تعالى للسائر في حاجة الناس والقاضي لها كما يظهر في الأحاديث التالية:

1- عن الرسول الأكرم (ص):

«من سعى في حاجة أخيه المؤمن فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة، صائماً نهاره، قائماً ليله» ([63])([64]).

2- عن الإمام الباقر (ع):

«من سعى في حاجة أخيه المسلم طلب وجه الله كتب الله له ألف ألف حسنة» ([65]).

3- عن الإمام الصادق (ع):

«إن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكل الله عزّ وجلّ به ملكين: واحداً عن يمينه، وآخر عن شماله، يستغفرون له ربّه، ويدعون بقضاء حاجته» ([66]).

4- عن الإمام الكاظم (ع):

«إن لله عبداً في الأرض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة» ([67]).

5- عن الرسول الأكرم (ص):

«من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهرًا»([68]).

6- وعنه صلوات الله عليه وآله:

«من قضى لمؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة أدناها الجنة»([69]).

الحياة الاجتماعية في سيرة النبي (ص) وأهل بيته (ع)

الرسول الأكرم (ص):

كما كان الجانب المعنوي جلياً في شخصية النبي (ص) كان اهتمامه بالحياة الاجتماعية جلياً أيضاً.

فكان أصحابه يرون اهتمامه بعياله حتى قال أحدهم: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله وورد في سيرته الشريفة أنه كان يتجمل لزوجاته([70]).

كما ورد أنه كان يحلب عنز أهله([71]).

وكان صلوات الله عليه وآله يولي اهتماماً بالأطفال فكان يمسح على رؤوسهم([72]) ويجلسهم في حجره ويقبلهم([73])، وقد رأى المسلمون خاتم الأنبياء (ص) يحمل الحسن والحسين (ع) على ظهره يحبو بهما ويقول:

«ونعم الجمال جملكما ونعم العدلان أنتما»([74]).

وورد في علاقته بالمؤمنين أنه كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده([75]) وكان (ص) يتجمل لأصحابه ويقول:

«إن الله تعالى يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيا لهم ويتجمل»([76]).

وكان في علاقاته بجيرانه يمثل قمة الرحمة حتى مع جاره اليهودي الذي كان يؤذيه يوماً بوضع النفايات قرب باب منزله، ولم يكن النبي (ص) يردّ عليه بأية كلمة أو أيّ فعل، بل حينما لم يجد النفايات ذات يوم سأل عن ذلك الجار، فقيل له أنه مريض فذهب لعيادته، وقد أدّى ذلك إلى إسلام ذلك اليهودي.

وكان صلوات الله عليه وآله بالغ الاهتمام بهداية الناس إلى الحق حتى وصل حاله في ذلك أن الله تعالى أنزل عليه قوله:

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)([77]).

وكان في الحروب أول المسلمين إقداماً وأكثرهم شجاعة، فعن أمير المؤمنين (ع):

«لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي (ص) وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»([78]).

وعنه (ع):

«كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله (ص) فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»([79]).

الإمام علي (ع):

وكما تجلّى اهتمام أمير المؤمنين بالعلاقة المعنوية مع الله تعالى كان اهتمامه بالحياة الاجتماعية فكان خير زوج مع أهله.

فقد ورد أنه (ع) كان في بيت السيدة الزهراء (ع) يحتطب ويسقي ويكنس([80])، وكان (ع) وغم فقره يوزع رزقه على المساكين([81]).

وكان (ع) يسعى جاهداً للدفاع عن المظلومين، وإغاثة الملهوفين سواء في الدفاع عن المجتمع الإسلامي ومواقفه في ذلك مشهودة أو في النواحي العديدة في الحياة الاجتماعية، ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن قيس الهمداني من أنه رآه يوماً في فناء حائط، فقال: يا أمير المؤمنين بهذه الساعة؟

قال (ع):

«ما خرجت إلا لأعين مظلوماً أو أغيث ملهوفاً».

فبينما هو كذلك إذ أتته امرأة قد خلع قلبها لا تدري أين تأخذ من الدنيا، حتى وقفت عليه، فقالت: يا أمير المؤمنين ظلمني زوجي وتعذّى عليّ وحلف ليضربني، فاذهب معي إليه.

فطأ رأسه ثم رفعه وهو يقول: حتى يؤخذ للمظلوم حقه غير متعت، وأين منزلك؟

قالت: في موضع كذا وكذا، فانطلق معها حتى انتهت إلى منزلها، وهناك أصلح أمرها مع زوجها، وخرج منه وهو يقول:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)([82]).

السيدة الزهراء (ع):

كانت (ع) في دائرة اهتمامها بعلاقتها بالله تعالى تدعو للمؤمنين والمؤمنات ولا تدعو لنفسها، وحين يسألها ولدها عن السبب ذلك تقول:

«الجار ثم الدار»([83]).

وكانت (ع) مثال الزوجة الكاملة لأمير المؤمنين (ع)، وكانت في بيتها تطحن وتعجن وتخبر([84])، وقد ورد عن الإمام علي (ع) «أنها طحنت بالرحى حتى مجلت يداها وكسحت البيت حتى أغبرت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها»([85]). «وأنها استقلت بالقربية حتى أثرت في صدرها»([86]) وكانت (ع) تقوم بدورها الاجتماعي التبليغي فتتشر أحاديث أبيها (ص) حتى سميت بالمحدثة.

الإمام الحسن (ع):

عرف الإمامان الحسنان (ع) بدورهما الاجتماعي والإصلاحي ودعوة الناس إلى الحق وهما صغيران، وهذا ما يبدوا واضحاً فيما روي أنهما رأيا أعرابيا يتوضأ بشكل خاطئ، فتقدما وطلبا منه أن يشرف على وضوئيهما ليعرف أي الوضوئين أحسن!

فقال الحسين (ع) للأعرابي: أينما يحسن الوضوء؟

فأجاب الأعرابي: «كلاكما تحسان، روي لكما الفداء، ولكن أنا الذي لا أحسنه»([87]).

وفي الحياة الاجتماعية للإمام الحسن (ع) ورد أنه قاسم الله ماله مرتين حتى أنه كان يعطي النعل ويمسك النعل، ويعطي الخف ويمسك الخف([88]).

ونقل العلامة المجلسي في البحار أن الإمام الحسن (ع) ذات يوم اغتسل وخرج من داره في حلة فاخرة، وبزة طاهرة ونضرة النعيم تعرف في أطرافه، وقاضي القدر قد حكم أن السعادة من أوصافه، ثم ركب بغلة فارهة ... فعرض له في الطريق من محاييج اليهود ... قد أنهكته العلة ، وأركبته الذلة، وأهلكته القلة ... فاستوقف الحسن (ع) وقال: يا ابن رسول الله، انصفني، فقال (ع): في أي شيء؟

فقال: جدك يقول:

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وأنت مؤمن وأنا كافر، فما أرى الدنيا إلا جنة تتنعم بها، وتستلذ بها، وما أراها إلا سجناً لي قد أهلكني ضرها، وأتلفني فقرها.

فأجابه الإمام الحسن (ع):

«يا شيخ: لو نظرت إلى ما أعد الله لي وللمؤمنين في الدار الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، لعلمت أنني قبل انتقالي إليه في هذه الدنيا في سجن ضنك، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر في الدار الآخرة من سحير نار الجحيم، ونكال العذاب المقيم، لرأيت أنك قبل مصيرك إليه الآن في جنة واسعة ونعمة جامعة»([89]).

الإمام الحسين (ع):

كان (ع) ساعياً في قضاء حوائج الناس على مشاكلهم ويسدّ ديونهم([90]) ويتصدق على فقرائهم حتى روى أنه وجد على ظهر الحسين بن علي (ع) بوم الطف أثر، فسألوا الإمام زين العابدين (ع) عن ذلك فقال:

«هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرمال واليتامى والمساكين»([91]).

وكان معروفاً أنه أكرم الناس وكان ينشد - فيما ينسب إليه:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها

على الناس طراً قبل أن تتفلت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت

ولا البخل يبقيها إذا ما تولّت ([92])

وكان (ع) يخضب لحيته الشريفة.

وقد ورد عن الإمام الصادق (ع):

«أنه قتل وهو مختضب بالوسمة» ([93]).

نكتفي بهذا تاركين معرفة تفاصيل الحياة الاجتماعية لأهل الكساء لسانر أنمة أهل البيت (ع) للكتب التي فصلّت في ذلك.

النتيجة = الموازنة قاعدة السير والسلوك

مما تقدم نفهم بوضوح أن الإسلام دعا إلى الاهتمام بأمرين معاً دون التحيز لأحدهما دون الآخر وهما:

1- المعنوية الفردية.

2- الحياة الاجتماعية.

فالموازنة بين المعنوية الفردية والحياة الاجتماعية قاعدة أساسية في السير إلى الله والسلوك في طريقه.

وتنطلق قاعدة الموازنة هذه من آفتين قد توجدان في داخل الإنسان.

الآفة الأولى: سماكة جدار المادة في الإنسان فيرفقه الاهتمام بالمعنوية الفردية.

الآفة الثانية: ضيق أفق النفس الإنسانية عن مصالح غيرها وعدم الاهتمام إلا بمصلحتها هي، فيوسعه من خلال الاهتمام بالحياة الاجتماعية وخدمة الآخرين.

قاعدة الموازنة في القرآن الكريم:

عند ملاحظة مجموع الآيات المتقدمة تظهر الموازنة بين المعنوية الفردية والحياة الاجتماعية كقاعدة قرآنية واضحة، ومع ذلك نذكر هنا ما جمع بين هذين الأمرين في سياق واحد فقد قال تعالى:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً) ([94]).

فالليل يناسب الخلوة مع الله تعالى وتعزيز الجانب الروحي عند الإنسان، بينما النهار يناسب السبح في المجتمع، وفي سائر الأعمال الإنسان الدنيوية والأخروية.

قاعدة الموازنة في الأحاديث الشريفة:

إن الروايات السابقة وإن كانت توضح قاعدة الموازنة هذه، إلا أنا نعرض رواية جمعت بينهما في سياق واحد وهي ما ورد عن الإمام الصادق (ع):

«خصلتان من كانتا فيه وإلا فأعزب، ثم أعزب، ثم أعزب.

قيل وما هما: قال:

1- الصلاة في مواقيتها والمحافظة عليها.

2- والمواساة».

فالصلاة في وقتها مثال للمعنوية الفردية، والمواساة مثل للحياة الاجتماعية وخدمة الآخرين.

الموازنة في حياة الرسول الأكرم (ص):

إن حياة النبي الأعظم (ص) مليئة بالشواهد الدالة على مراعاته الموازنة.

ومن تلك الشواهد ما ورد عن الإمام الحسين (ع):

«سألت أبي عن دخول النبي (ص) فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك، وكان إذا آوى إلى منزله جزءاً دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله عز وجل، وجزء لنفسه ثم جزء جزءه بينه وبين الناس. فيرد على العامة والخاصة ولا يدخر عنهم شيئاً».

الإمام علي (ع):

لعلّ أروع تطبيق عرضه القرآن الكريم لقاعدة الموازنة المعنوية الفردية وخدمة الآخرين هو ما أنزله الله تعالى في أمير المؤمنين (ع) حينما تصدق بخاتمه وهو يصلي.

وفي تفصيل هذه الحادثة العظيمة ذكر الشيخ الطبرسي في مجمع البيان بإسناده عن عبادة بن ربيعي قال:

بينما عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله (ص) إذ أقبل رجل متعمم بعمامة...

فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله، إلا قال الرجل: قال رسول الله.

فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟

فكشف العمامة عن وجهه وقال:

«يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا جندب بن جنادة البصري أبو ذر الغفاري سمعت رسول الله (ص) بهاتين وإلا فصمتاً، ورأيت بهاتين وإلا فعميتا يقول:

«علي قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله».

أما أني صليت مع رسول الله (ص) يوماً من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء وقال:

اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً.

وكان عليّ (ع) راکعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه، وكان يتختم فيه فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله (ص)، فلما فرغ من صلاته، رفع رأسه إلى السماء وقال:

«اللهم إن أخي موسى سألک فقال: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَازُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً (سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا)، اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشد به ظهري».

قال أبو ذر:

«فوالله ما استتم رسول الله الكلمة حتى نزل عليه جبرائيل من عند الله فقال: يا محمد اقرأ.

قال (ص): وما اقرأ!

قال: اقرأ:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ([95]).

فالإمام علي (ع) في هذه الحادثة جمع بين عملين عظيمين في وقت واحد هما: الصلاة والتصدق على الفقير، ليرسم قاعدة الموازنة في قمة صورها فالاختلاء مع الله تعالى والتوجه إليه بقيمة المعنوية القلبية لم تصرف علياً عن العمل الاجتماعي وخدمة الآخرين. وقد حيرت هذه الحادثة من لم يلتفت إلى قيمة الموازنة في هذا العمل فتعجب من فعل أمير المؤمنين (ع) هذا.

فمن المعروف أن الإمام علي (ع) كان في صلاته يستغرق في الله إلى حد روي أنه وقع في رجله نصل، فلم يمكن إخراجها، فقالت السيدة فاطمة:

«أخرجوه في حال صلاته، فإنه أثناء الصلاة لا يحس بما يجري عليه، فأخرج وهو في صلاته» ([96]).

من هنا ورد إن ابن الجوزي اعترض على بعض الخطباء بأن علياً (ع) من استغراقه الكامل في ذات الله لدى الصلاة كيف التفت إلى السائل وأعطاه خاتمه!!

فأجاب الخطيب بالبداهة:

يُسْقِي وَيَشْرَبُ لَا تَلْهِيهِ سَكْرَتُهُ

عن النديم ولا يلهوا عن الكأس

أطاعه سكره حتى تمكن من

فعل الصحابة فهذا أفضل الناس([97])

نعم، إن القيمة الكبرى لعمل أمير المؤمنين (ع) والذي استنزل آية الولاية الكبرى هو أنه جمع بين قمة التوجه إلى الله في حالته المعنوية وبين قضاء حاجة الفقير بالتصدق عليه.

الرسول الأكرم (ص) في مواجهة الإفراط في المعنويات

ذكرنا سابقاً المسلك المفرط في المعنويات والمنحاز إليها على حساب الحياة الاجتماعية. يبدو أن هذا المسلك كان على عهد رسول الله (ص) الذي واجهه بشدة تبدو من خلال الروايات التالية:

1- عن الإمام علي (ع) قال:

«إن جماعة من الصحابة كانوا حرموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت أم سلمة رسول الله (ص)، فخرج إلى أصحابه، فقال: أترغبون عن النساء؟! إني آتي النساء، وأكل بالنهار، وأنام بالليل: فمن رغب عن سنتي فليس مني...»([98]).

2- عن الإمام الصادق (ع) قال:

«جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبي (ص) فقالت: يا رسول الله إن عثمان يصوم النهار ويقوم الليل. فخرج رسول الله (ص) مغضباً يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلي، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله (ص) فقال له: يا عثمان، لم يرسلني الله بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنيفية السمحة أصوم وأصلي وأمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي، ومن سنتي النكاح»([99]).

3- عن الإمام الصادق (ع) قال:

«إن ثلاث نسوة أتين رسول الله (ص) فقالت إحداهن: إن زوجي لا يأكل اللحم، وقالت الأخرى: إن زوجي لا يشم الطيب وقالت الأخرى: إن زوجي لا يقرب النساء، فخرج رسول الله (ص) يجر رداءه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال قوم من أصحابي لا يأكلون اللحم، ولا يشمون الطيب، ولا يأتون النساء؟! أما إني أكل اللحم، وأشم الطيب، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»([100]).

الإمام علي (ع) في مواجهة الإفراط في المعنويات

دخل الإمام علي (ع) في البصرة على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعودده، فلما رأى سعة داره قال (ع):

«ما كنت تصنع بسعة هذه الدار وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ ويلي أن شئت بلغت بها الآخرة تقر في فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذن أنت قد بلغت بها الآخرة».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال (ع): ما له؟ قال: لبس العباداة وتخلي عن الدنيا. قال (ع): عليّ به، فلما جاء قال(ع):

«يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك، أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟! أنت أهون على الله من ذلك!«.

قال يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملابسك وجشوبة مأكلك.

قال (ع):

«ويحك إني لست كأنت إن الله - تعالى - فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كي لا يتبيحَ بالفقير فقره»([101]).

زهد سلمان

ويبدو أن هذا النمط من التفكير واجه سلمان الفارسي المحمدي حينما علم البعض أن سلمان كان إذا أخذ العطاء من بيت المال رفع منه قوته لسنته حتى يحضر عطاؤه من قابل، فقبل له: يا أبا عبد الله، أنت في زهدك تصنع هذا؟! وإنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً.

فكان جوابه: «ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليَّ الفناء؟ أو ما علمتم يا جهلة أن النفس تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يعمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت»([102]).

نتيجة البحث

الحالة

رأي الإسلام

1- التفرُّغ للاختلاء مع الله والاهتمام بالحالات المعنوية والفردية والابتعاد عن الحياة الاجتماعية والسياسية

مرفوض

2- الاهتمام بالحياة الاجتماعية وشؤون الناس وترك الحالات المعنوية الفردية

مرفوض

3- العمل على أمرين: تصفية الباطن بالمعنويات والاهتمام بالحياة الاجتماعية والسياسية

هو السير الصحيح

تطبيقات

الحالة الأولى

قد يقول البعض: إن علاج الآخرين إنما يصح لي حينما لا يضر بحالتي العرفانية أو يزاحمها، فإن حصل الضرر أو المزاحمة فإني أكتفي بنفسي ولا أتدخل في علاج الآخرين والدليل على ذلك قوله تعالى:

(... عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) ([103]).

الجواب: إن هذا القول يتناقض مع الآيات الآمرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعنى الآية السابقة هو عدم التحسر على الذين لا ينفعهم الإرشاد والهداية، وذلك من قبيل قوله تعالى:

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) ([104]).

وقوله تعالى:

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) ([105]).

الحالة الثانية:

قد يقول البعض: طالما أن الإسلام منع الترهين، فيصح أن أتعمم بالدنيا بقدر ما أريد من دون أن يمنع هذا من سلوكي وسيري في سبيل الله تعالى.

الجواب: صحيح أن المؤمن يحق له أن يتمتع بالدنيا لكن عليه أن ينتبه إلى الأمور التالية:

الأول: يجب أن يؤدي ما عليه من حقوق وواجبات ويلتفت إلى عدم ارتكاب أي محرم.

الثاني: ينبغي أن لا يغفل عن مواصلة الآخرين فيما أنعم الله به عليه.

الثالث: ينبغي أن لا يصل تنعمه بالنعم المحللة إلى مستوى تعلق القلب بها فيأسى على ما فاتته، بل ينبغي أن يكون دائماً في حالة الرضا بقضاء الله في السراء والضراء ليكون محققاً للهدف من قوله تعالى:

(لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) ([106]).

فليس الزهد أن لا يملك الإنسان شيئاً إنما الزهد أن لا يملكه شيء إنه صراع بين المالك والمملوك ودعوة الله للإنسان أن يكون هو المالك بشعور حقيقي أن الملك الواقعي هو الله وحده.

وللبحث تتمة إقرأها في كتابنا

«برنامج السير والسلوك»

[1] الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلامية، 1985م، ج4، ص186.

[2] هذا التعبير هو لآية الله السيد كاظم الحائري.

[3] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق الشيرازي، ط5، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1983، ج5، ص280 - 281.

[4] سورة الزمر، الآية/9.

[5] عرفانيان، غلام رضا، صلاة الليل، ط3، قم، بصيرتي، 1410هـ، ص25.

[6] سورة الطور، الآية/49.

[7] سورة الفرقان، الآية/64.

[8] عرفانيان، غلام رضا، صلاة الليل، ص29

[9] المرجع السابق، ص29-30

[10] المرجع السابق، ص31.

[11] المرجع السابق، ص32.

[12] المرجع السابق، ص32.

[13] الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق الحسيني، ط2، بيروت، مؤسسة الوفاء، 1983، ج1، ص407.

[14] بشروط خاصة مذكورة في الكتب الفقهية، راجع كتاب (أحكام الاعتكاف) إعداد ونشر جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، بيروت.

[15] الصدر، محمد باقر، الفتاوى الواضحة، ص655.

[16] سورة طه، الآية/1.

[17] القمي، عباس، كحل البصر، قم، انتشارات الرسول المصطفى (ص)، 1404هـ، ص78.

[18] القمي، اصغر ناظم، الفصول المائة، قم، انتشارات أهل البيت ^، 1411هـ، ج4، ص118.

[19] شويحطات: نوع من الأشجار.

[20] وفي الأمالي: كم من موبقة حلمت بها عني فقابلتها بنعمتك.

[21] الغابر: الماضي وضد الباقي.

[22] الكلى: جمع الكلية.

[23] في الأمالي: الهبات.

[24] أنعم: زاد وبالع، وفي الأمالي: أنعم.

[25] القمي، اصغر ناظم، الفصول المائة، قم، انتشارات أهل البيت ^ع، 1411هـ، ج4، ص121-122.

[26] الثفنة بكسر بعد فتح: ما يمسّ الأرض من البعير بعد البروك ويكون فيه غلظ من ملاطمة الأرض، وكذلك كان في جبين أمير المؤمنين (ع) من كثرة السجود.

[27] المرجع السابق، ص119.

[28] انظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق محمود درياب، ط1، بيروت، دار التعارف، 2001م، ج18، ص12.

[29] المرجع السابق، ص63.

[30] المرجع السابق، ص63.

[31] المرجع السابق، ص237.

[32] المرجع السابق، ص243.

[33] الحسنی، هاشم، سيرة الأئمة الاثني عشر، ط1، قم، الشريف الرضي، 1409هـ، ج2، ص33.

[34] المرجع السابق، ص34-35.

[35] المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين (ع)، ط2، قم، دار الثقافة، ص282.

[36] سورة الكهف، الآية/45.

[37] سورة يونس، الآية/24.

[38] سورة الحديد، الآية/20.

[39] الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج3، ص324.

[40] الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج3، ص293-294.

[41] المرجع السابق، ص331.

[42] المرجع السابق، ص294.

[43] المرجع السابق، ص295.

[44] سورة القصص، الآية/77.

[45] سورة الأعراف، الآية/32.

[46] الريشهري، محمدي، ج3، ص285.

[47] المرجع السابق، ص291.

[48] بيضون، لبيب، تصنيف نهج البلاغة، ط2، طهران، مركز النشر في مكتب الإعلام الإسلامي، 1408هـ، ص886-887.

[49] الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج3، ص330.

[50] المرجع السابق، ص296.

[51] بيضون، لبيب، تصنيف نهج البلاغة، ص903.

[52] الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج3، ص330.

[53] انظر: (رحاب نهج البلاغة) للشهيد المطهري، ط1، بيروت، الدار الإسلامية، 1412هـ، ص169-201.

[54] سورة البقرة، الآية/30.

[55] سورة البقرة، الآية/195.

[56] سورة البقرة، الآية/261.

[57] سورة البقرة، الآية/244.

[58] سورة التوبة، الآية/19.

[59] سورة النساء، الآية/100.

[60] سورة آل عمران، الآية/169.

[61] انظر: بركات، أكرم، محاضرات عاشورانية/ ص37-38.

[62] الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلامية، 1985م، ج2، ص537.

[63] المرجع السابق.

[64] المرجع السابق، ص537.

- [65] المرجع السابق، ص538.
- [66] المرجع السابق، ص538
- [67] المرجع السابق، ص536.
- [68] المرجع السابق، ص539.
- [69] المرجع السابق.
- [70] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط1، بيروت، دار الفارق، ج7، ص473.
- [71] المرجع السابق، ص465.
- [72] بركات، أكرم، كيف تجعل ولدك صالحاً، ط2، بيروت، دار الولاية، 2004م، ص53.
- [73] بركات، أكرم، محاضرات عاشورانية، ط1، بيروت، دار الولاية، 2000م، ص36.
- [74] المرجع السابق، ص95.
- [75] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج7، ص461.
- [76] المرجع السابق، ص483.
- [77] سورة غافر، الآية/8.
- [78] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج7، ص460.
- [79] المرجع السابق.
- [80] المرجع السابق، ج18، ص111.
- [81] المرجع السابق، ص105.
- [82] المرجع السابق، ج16، ص557.
- [83] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج18، ص63.
- [84] المرجع السابق، ص111.
- [85] المرجع السابق، ص63 (مجلت : أي أثنى جلدها)
- [86] المرجع السابق، ص64.

[87] التستري، جعفر، الخصائص الحسينية، تحقيق جعفر الحسيني، قم، منشورات أنوار الهدى، ص171.

[88] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج18، ص243.

[89] المرجع السابق، ص247-248.

[90] المرجع السابق، ص376.

[91] المرجع السابق، ص376-377.

[92] المرجع السابق، ص377.

[93] المرجع السابق، ص385.

[94] سورة المزمل، الآيتان/6-7.

[95] الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق محلاتي والطباطبائي، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1986م، ج3، ص324-325.

[96] الكاشاني، محسن، المحجة البيضاء، تعليق الغفاري، ط2، قم، انتشارات إسلامي، ج1، ص397-398.

[97] الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص99.

[98] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت ^ لإحياء التراث، ط1، ج20، ص21، حديث9.

[99] المرجع السابق، ج20، ص106-107، الحديث1.

[100] المرجع السابق، ج20، ص107، الحديث2.

[101] الحائري، تزكية النفس، ص115-116.

[102] الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص120.

[103] سورة المائدة، الآية/105.

[104] سورة فاطر، الآية/8.

[105] سورة النحل، الآية/127 (أنظر: الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص125).

[106] سورة الحديد، الآية/23 (أنظر: الحائري، تزكية النفس، ص122).